سياط القلوب

عائض بن عبد الله القرني

دار ابن حزم

سياط القلوب

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

الرقائق

إن الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد..

قال البخاري في صحيحه: (كتاب الرقائق) والرقائق هي ما يرقق القلوب، وقد يُطلق عليها: الرِّقاق.

ثم قال: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ**».

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «**اللهم لا عيشَ إلا عيشَ الآخرة فأصلح الأنصار والمهاجِرة**».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه وأرضاه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهو يحفر ونحن ننقل التراب وبصر بنا ﷺ فقال: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**».

هذه الأحاديث الثلاثة هي مدار حديثنا إن شاء الله في هذه الرسالة.

لقد مدح الله المُخبتين وذكر سبحانه وتعالى أن كتابه يُلين القلوب فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الحج: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الرعد: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾.

وقال في سورة الأنفال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

وقال في سورة الحديد: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

من هذا المنطلق أتى أهل العلم من أهل السنة والجماعة فرأوا أن أعظم ما يُلين القلب ويُذكّره بربه تبارك وتعالى هو كتاب الله عز وجل، وسنّة رسوله ﷺ. ومن لا يتعظ بالقرآن كما ورد في بعض الآثار فلو تناطحت جبال الدنيا أمام عينيه ما اتَّعظ، وكفى بالموت واعظاً.

فمن أراد أكبر واعظٍ في الدنيا فإنه القرآن، فليتعظ بموعظة الله عز وجل.

وما كان عند الصحابة كتب مواعظ ولا رقائق، وإنما كان عندهم كتاب الله عز وجل.

فلما تطاول العهد ومضت القرون وتراكمت السنون، أتى بعض أهل العلم فرأى أن من المصلحة وضع كتب في الرقائق، لكنها ما أفلحت في ترقيق القلوب وما نجحت ذاك النجاح المطلوب، لأنه لا يرقق القلوب إلا من خلقها وأبدعها وصوَّرها وأوجدها، وهو الله سبحانه وتعالى.

نـروح ونـغـدو لـحـاجـاتـنـا　　وحـاجـة مـن عـاش لا تـنـقـضـي
تـمـوت مـع الـمـرء حـاجـاتـه　　وتـبـقـى لـه حـاجـة مـا بـقـي
أشـاب الـصـغـير وأفـنـى الـكـبـير　　كـرُّ الـغـداة ومـرُّ الـعـشـي
إذا لـيـلـة هَـرّمـت يـومـهـا　　أتـى بـعـد ذلـك يـوم فـتـي

قال الحسن رحمه الله: يا ابن آدم إنما أنت أيام، إذا ذهب يومك فقد ذهب بعضك.

وإن كل يوم يشرق على الدنيا يقول: يا ابن آدم اغتنمني فوالله لا أعود الك حتى يرث الله الأرض ومَن عليها.

فما نحن إلا أيام وما نحن إلا أنفاس وما أعمارنا إلا سويعات بل هي أقل من السويعات.

دقـات قـلـب الـمـرء قـائـلـة لـه　　أن الـحـيـاة دقـائـق وثـوانـي
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها　　فـالـذكـر لـلإنـسـان عـمـر ثـانـي

والسؤال: ما هي أكبر نعمة أسداها الله عز وجل لهذا الإنسان؟

في هذا خلاف بين العقلاء والنبلاء والعلماء.

فذهب بعض النبلاء إلى أن أفضل نعمة هي الماء البارد.

وقال بعض المفسرين في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ قال: والله لتسألن عن الماء البارد فإنه من أفضل النعم.

وفي حديث في مسند الإمام أحمد حسنه ابن رجب وأتى به في كتاب «اختصام الملأ الأعلى» أن الرسول ﷺ كان يقول في دعائه: **«اللهم اجعلني أحبك أكثر من حبِّ الماء البارد على الظمأ»**.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما وأرضاهما إذا صام وأتى الإفطار في المدينة قدموا له الماء البارد فقال: اللهم إني أحبك أكثر من هذا الماء البارد.

فقال بعض النبلاء: أعظم نعمة هي الماء البارد.

وليجرب ذلك من ظمىء.

هل هناك مطلب أو مقصد أعظم من الماء البارد؟

ولذلك دخل ابن السمَّاك الواعظ الكبير النِّحرير الشهير على هارون الرشيد فلما جلس عنده قال هارون الرشيد له: أينا أزهد يا ابن السمَّاك أنا أم أنت؟ وهو يعلم أن ابن السماك أزهدَ منه.

قال ابن السماك: أنت يا هارون الرشيد أزهد مني.

قال: ولِمَ؟

قال: لأنك زهدت في الآخرة التي يقول فيها الله: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾، وأنا زهدت في الدنيا وهي فانية.

فالذي يزهد في الذهب أعظم من الذي يزهد في الخشب.

فقال: صدقت.

فلما أُتي بالماء ليشرب هارون قال ابن السماك: أسألك بالله لا تشرب حتى أحدِّثك.

قال: وماذا تحدثني؟

قال: لو مُنعتَ هذه الشربة على أن تدفع نصف ملكك أتدفعه؟

قال: نعم وربي.

وصدق.

فلما شرب قال له: لو مُنعت إخراج هذا الماء الذي شربته بنصف ملكك أتدفعه؟

قال: نعم وربي.

قال: ملك لا يساوي شربة من الماء ليس بملك!!

وقال بعض النبلاء: بل أعظم نعمة هي نعمة الحياة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾. فذكر الله نعمة الحياة.

وقال قوم: بل هي نعمة الصحَّة، فإن الصحَّة لا يذكرها إلا المريض إذا مرض.

وفي أثر قُدسي: أن الله سبحانه وتعالى إذا أمرض العبد يقول: وعزَّتي وجلالي لا أُمرض مؤمناً إلا على خصلتين: إما أن أميته فأغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإما أن أحييه وأرد له الصحة فأُبدله عظماً خيراً من عظمه، أو لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه.

وذكر ﷺ فيما صحَّ عنه أن الله عز وجل يحاسب عبده يوم القيامة فيقول: «**ألم أصحَّ بدنك**»(١).

فنعمة الصحة من أجلِّ النعم.

وقال قوم وكأنه الصحيح: أعظم نعمة هي نعمة الإيمان وهذا ما يميل إليه شيخ الإسلام ابن تيمية.

فلا أعظم من نعمة الإيمان كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾. فالمؤمن حي والكافر ميت، ولو كانا جميعاً في الحياة يدبَّان.

ولذلك يقول ابن تيمية كما تقرّر في مناسبات ما معناه: المؤمن

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني في المشكاة (٥١٩٦).

يُولد مرتين: مرة يوم أتت به أمه، ومرة يوم يولد في الإسلام فيتأدَّب بآداب الإسلام.

وأما الكافر فليس له إلا ميلاد واحد، ثم هو ميت أبد الدهر.

فنعوذ بالله من موت القلوب.

يقول ميمون بن مهران: دخلت على عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز وعمره تسعة عشر عاماً فأمسيت عنده ليلة من الليالي وكان صالحاً.

قال بعض أهل العلم: وهو أصلح من أبيه.

وقالوا: إنما تعلَّم عمر بن عبدالعزيز العبادة من عبادة ابنه عبدالملك هذا.

قال: فتركني حتى رأى أنني نمت ثم توضأ وأنا ألمح إليه في ليلة شاتية ثم قام يصلي.

قال: فسمعته والله يبكي حتى كادت أضلاعه تختلف وهو يردِّد قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

قال: فتحركت وتنحنحت.

فلما سمعني سكت فما سمعت بكاءه.

وهذه الآية من أعظم الزواجر في كتاب الله عز وجل.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك**»[(١)]، أو كما قال ﷺ. رواه الترمذي وحسَّنه.

---

(١) رواه الحاكم (٤/٣٠٦).

وفي الترمذي أنه كان يقول ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعاً**»، ثم ذكرها عليه الصلاة والسلام.

وفي الترمذي أن الرسول ﷺ كان يقول: «**لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع** - فذكر منها - **عمره فيما أبلاه**».

وأعظم ما مُني به المسلمون هو فوات أوقاتهم، فإن أرخص الأوقات والدماء هي أوقات ودماء المسلمين.

لقد غلت الدماء وغلت الأوقات إلا عند المسلمين - إلا من رحم الله - فإنها رخيصة جداً، وليس لهم حل إلا أن يرجعوا ويعودوا إلى الله تبارك وتعالى.

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: كان رسول الله ﷺ أحفظ الناس لوقته فكانت أنفاسه ذكراً، وكلامه ذكراً، ونظره ذكراً، ومشيه ﷺ وجلوسه وقيامه ونومه ذكراً منه لربه تبارك وتعالى.

فهو أعبد الناس وأحفظ من حفظ الوقت من الناس عليه الصلاة والسلام.

ثم ذكر أهل العلم طائفة من الصالحين حفظوا أوقاتهم.

ففي ترجمة سهل بن عبدالله التُّسْتُري أنه لما حضرته الوفاة لقَّنه ابنه الشهادة فقال: يا بني أتلقني الشهادة وأنا في الورد السادس عشر من الأذكار.

أي أنه لم يترك ورده حتى في هذه الساعة.

يُذَكِّر بالأوراد من كان غافلاً ... فكيف بقلب كل حاله وِرْدُ

وفي ترجمته أيضاً عند الذهبي وغيره أنه لما حضرته الوفاة كان يقرأ حتى بلغ سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾.

فقال ابنه: ماذا تقول يا أبتاه وأنت تتمتم وأنت في سكرات الموت؟

قال: الآن أختم المصحف.

قال: أتختم وأنت في سكرات الموت؟

قال: من أحوج مني الآن بالعمل الصالح؟

وذُكر في ترجمة أحد المحدثين أنه قال لابنه عند سكرات الموت: يا بني أسألك بالله أن لا تعصي الله في هذا البيت، فإني قد ختمت كتاب الله عز وجل فيه أربعة آلاف ختمة.

وكان خالد بن معدان إذا جلس مع الناس لا تفتر أصابعه ولسانه من ذكر الله عز وجل.

فقيل له: كم تسبح في اليوم؟

قال: اعفوني كفى بذنبي وتقصيري.

قالوا: نسألك بالله أخبرنا كم تسبِّح؟

قال: مائة ألف تسبيحة!

أما كرز بن وبرة فذكر النووي في «التبيان في آداب حملة القرآن» أنه كان يختم القرآن في النهار أربع مرات وفي الليل أربع مرات.

ومن شكَّ في هذا فليعد إلى الكتاب حيث نقل ذلك بأسانيد صحيحة.

ونحن لا نوافقه على هذا لأن السنة أوْلى بالاتباع، وإنما نذكر هذا من باب تبيين حرصهم على الوقت وحرصهم على استثمار الساعات والدقائق، وإلا فإن السنة أن لا يختم العبد القرآن في أقل من ثلاث وإن ختم في سبع فحسن.

ثم إنه قد يتساءل متسائل: كيف يستطيع أن يختم أربع مرات؟

فنقول: إن الله جعل لبعض الصالحين كرامة، أي بركة في

الوقت، فجعلهم يعملون من الأعمال في ساعات ما لا نستطيع أن نعملها في الأسبوع أو في الشهر، وهذه بركة من الله وكرامة لبعض الأولياء.

فمثلاً كان ابن تيمية يؤلف بعض مصنفاته كالعقيدة الواسطية التي يدرسها العلماء إلى اليوم في وقت قليل، فقد ألفها في جلسة من بعد صلاة الظهر إلى العصر! فلا تعجب.

أما الإمام أحمد رحمه الله رحمة واسعة فإنه لما حضرته الوفاة جلس وتربَّع وأخذ يقلب كفه ويقول: من أكل من الدنيا فيا أقل ما أكل، ومن صبر على شظفها فيا أقل ما صبر.

لقد صبر على الزهد وعاش ثلاثاً وستين أو ما يقاربها، فمات أهل النعيم ومات أهل البؤس وذهبوا بأعمالهم إلى الله عز وجل.

ولذلك فإنك إذا نظرت إلى القبور فإنك لا تفرِّق بين قبر الغني وقبر الفقير.

أتيت القبور فناديتها أين المعظَّم والمحتقَر
تفانوا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحوا محاسن تلك الصور

فلذلك صح عنه ﷺ من حديث أنس أنه قال: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا**» أي من كان يأكل أطيب المطاعم وينكح أجمل الزوجات ويركب أجمل المراكب ويدمي جنبه الحرير ورهيف الديباج.

«**فيغمس في جهنم غمسة واحدة ثم يخرج فيقول الله له: هل رأيت نعيماً قط هل مرَّ بك نعيم قط؟**

قال: لا والله ما مر بي نعيم قط.

ويؤتى بأبأس أهل الأرض الذي مرت به النوائب والأحداث فما

كان يجد كسرة الخبز، قد أنهكته الأمراض والمصائب.

فيغمس في الجنة غمسة. فيقال: هل مرَّ بك بؤس قط؟ فيقول: لا يا ربي ما مرَّ بي بؤس قط»(١).

فالمقصود إخلاص العمل لوجه الله ـ عز وجل ـ ومعرفة أن هذه الدار ليست بدار.

مرّ عمر بن عبدالعزيز على نصرانية راهبة فقال لها يستكشف ما عندها: عظيني.

فقالت:

تجرّد من الدنيا فإنك إنما أتيت إلى الدنيا وأنت مجرَّد

فأخذ يردد هذا البيت معجباً به.

نعم.. لقد أتى الإنسان إلى الدنيا وهو لا يملك شيئاً من المتاع ولا من الثياب.

ولذلك يقول الله عز وجل في العبد إذا أُخرج من قبره وهو عريان لا يملك من الدنيا شيئاً.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

قال أحد الصالحين للربيع بن خثيم: إني أنشد شعراً بعض الأوقات أترنم به فهل ذلك في الذنوب أو في الحسنات؟

---

(١) رواه مسلم.

قال: هو عمرك فافعل فيه ما تشاء.

ولذلك ليس للإنسان إلا عمر واحد.

ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

وذكر صاحب الحلية أبو نعيم أن رابعة العدوية كانت تصلي الليل كله، فإذا صلَّت الفجر نامت نومة قليلة ثم استفاقت وقالت: يا نفس كم تنامين، يوشك أن تنامين نومة طويلة طويلة.

وأُثر عن علي رضي الله عنه أنه لما مرَّ على القبور بكى طويلاً وقال: أما ظواهركم فجميلة، ولكن ليت شعري ما في بواطنكم؟

ولكنهم لم يجيبوا.. فهم كما قال المتنبي:

خُرسٌ إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

فالموت آت والنفوس نفائس والمستعز بما لديه الأحمق

فحفظ الوقت من أجل ما يطلبه المسلم.

أما الزهد: فإن العلماء قد اختلفوا في تعريفه.

فهو عند قوم يعني الزهد في الحرام.

فقالوا: من ترك الحرام كل الحرام فهو الزاهد.

واستدلوا على ذلك بحديث حسن عن أبي هريرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**واتقِ المحارم تكن أورع الناس**»(١)، والورع والزهد قرينان.

وقال غيرهم: الزهد هو الزهد في الناس أي أن لا تحب أن يمدحوك بما ليس فيك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس»، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٠٦).

لأن بعض الناس يجعل مقصده مدح الناس وثناء الناس.

فالزهد أن تزهد في مدح الناس وفي ثناء الناس، سواء مدحوك أو ذمُّوك، فإنهم لا يضرون ولا ينفعون.

ولذلك كان الله يُقرّب هذه الحقيقة في القرآن فيقول: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، ويقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ويقول عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

فالمقصود أن مدحهم وذمّهم لا يضر ولا ينفع.

قال الفضيل بن عياض: كنت أهتم من كلام الناس حتى عرفت الناس، فما أصبحت أُلقي لكلامهم بالاً.

وقيل: الزهد هو الزهد في العلو والرفعة.

قال مالك بن دينار: تجد الرجل يزهد في الثوب ولا يزهد في الرفعة والعلو.

ولذلك قال سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

قال الفضيل: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ هو الذي يخرج من بيته في الصباح فلا يلقى مسلماً إلا ويرى أنه أحقر منه وأذل منه.

فإنك إن رأيت أنك أحسن من أحدٍ من الناس من المسلمين فقد بغيت علواً في الأرض أو فساداً.

وقال غيره من أهل العلم من الصالحين: الذي يريد العلو في الأرض هو الذي يغضب لنفسه ولا يغضب لله عز وجل.

قال ابن القيم ما معناه: نفسك ليست لك بل عدوة لك، فكيف تغضب لها؟ فالواجب أن تغضب إذا مُدِحَتْ لأنها عدوة لك، وترضى إذا أُغضبت لأنَّ عدوك إذا أُغضِب رضيت.

وأُثر عن علي رضي الله عنه وأرضاه أنه كان في غزوة فطارد مشركاً يريد أن يقتله في سبيل الله عز وجل، فلما اضطجع المشرك على ظهره بصق في وجه علي رضي الله عنه.

فكف علي رضي الله عنه وأشاح بسيفه.

فقال له الصحابة: لمَ لم تقتله يا أبا الحسن؟

قال: طاردته لأقتله لوجه الله عز وجل، فلما بصق في وجهي غضبت لنفسي فخشيت أن أقتله من أجل نفسي.

فهل هناك أمة مثل هذه الأمة؟

قيل لطلق بن حبيب: ما هي التقوى؟

قال: هي أن تعمل بنور من الله ترجو رحمة الله عز وجل، وتخاف عقاب الله، هذه هي التقوى كما فعل علي رضي الله عنه وعن إخوانه وأقرانه من الصحابة الأطهار وجمعنا بهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقيل: الزهد أن تزهد فيما سوى الله عز وجل.

ولذلك لا تطلب في صباحك ولا في مسائك إلا رضى الله تبارك وتعالى، فإذا رضي الله عليك فلا تبالِ بالناس.

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوِدُّ فالكل هيِّن ... وكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن القيم: أحسن هذا كلَّ الإحسان في هذه الأبيات وأساء كلَّ الإساءة حين وجَّهها لمخلوق مثله.

فإن هذه الأبيات لأبي فراس الحمداني الأمير الشاعر يقولها في ابن عمِّه سيف الدولة.

فإذا رضي الله عليك سبحانه وتعالى، فوالله لو غضب عليك أهل الأرض ما نقصوك شيئاً وما ضرُّوك بشيء.

ولذلك فإن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ومن عقيدتهم قوله ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام وجَفَّت الصُّحف**»[1].

أتى عيينة بن حصن الفزاري الغطفاني مع أُناس من بني تميم فنادوا الرسول ﷺ من وراء الحُجُرات وقت القيلولة بصوت مرتفع فقالوا: اخرج يا محمد!!

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، أي: لا تنادوه بيا محمد بل شرِّفوه بالرسالة.

فقال عيينة بن حصن لما خرج الرسول ﷺ: يا محمد إنَّ مَدْحَنا زَيْن، وذمَّنا شَيْن، أي اخرج وإلا ذممناك!! حتى يذمك العرب بذمِّنا.

فقال ﷺ: «**ذاك الله**»[2]، أي الذي مدحه زين وذمُّه شين.

وصدق عليه الصلاة والسلام، فإنه تعالى إذا مدح مدح، وإذا

(١) رواه الترمذي بسند صحيح.

(٢) رواه أحمد (٤٨٨/٣) والترمذي (٣٢٦٨).

رضي رضي، وإذا شانه شيء أو أغضبه شيء فغضبه الذي يحيق بالقوم الماكرين.

فقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

انظر إلى أدب القرآن حيث لم يقل: كلهم لا يعقلون لأن فيهم أناساً ليس لهم ذنب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ يعني غفر لهم سوء الأدب.

فالمقصود أن بعض الناس يعتقد النفع والضر في المدح أو في الذم من الناس.

وينسى أن الذي مدحه زَين وذمه شَين هو الله تبارك وتعالى.

فالواجب على المؤمن أن يدخل في مدحه تبارك وتعالى الذي مدح به الصالحين.

فهل مدح الصالحين في القرآن بقوة الأجسام؟

هل مدح الناس بالعلو في الأرض؟

هل مدح الله عز وجل أحداً بالذكاء وبالفطنة في غير مرضاته؟

بل مدح الله عز وجل الصالحين بثلاثين آية.

قال أهل العلم: من أراد أن يعرض نفسه على القرآن فليعرضها على هذه الثلاثين.

ولذلك قالوا في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾.

قالوا: بثلاثين آية هي في القرآن كما قال ابن عباس رضي الله عنه.

فمن أراد أن يدخل في مدح الله فليدخل في هذه الآيات.

كقوله عز من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾.

وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾.

وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾.

فهذا هو المدح الذي يجب أن يمتثله العبد وأن يدخل فيه.

وقال ابن تيمية: الزهد هو ترك ما لا ينفع في الآخرة.

وهذا من أحسن التعريفات.

فكل ما لا ينفعك في الآخرة فالأفضل تركه.

وأما ترك ما ينفعك في الآخرة فليس من الزهد في شيء.

فمثلاً: البيت الواسع قد ينفعك في الآخرة.

كيف؟

بأن تربي فيه أولادك وتأنس به وتستغله في تضييف الناس وفي الالتقاء بهم على الخير وفي الزيادة من الطاعات شكراً لله.

وهكذا غير البيت مما هو من قسم المباح.

ولذلك أخطأ بعض الناس من أهل التصوف ومن غيرهم في تعريف الزهد وظنوا أنه يكون بتحريم الحلال.

فسمعنا وقرأنا عن بعضهم أنه حرّم على نفسه الرُّطَب، وآخر حرّم على نفسه اللحم، وهكذا من التشديدات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

والمطلوب هو الوسط: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وسيرة محمد ﷺ هي الحكم في ذلك.

وأما الصحابة فإنك تستطيع أن توقع سيرهم على هذا كله لأنهم أتقى العباد لله.

قال ابن القيم رحمه الله: وثبت أن الصحابة شبعوا وجاعوا، وتنعموا وبأسوا، ولبسوا من أحسن اللباس ومن أوضعها، رضوان الله عليهم وأرضاهم.

فلك في كل منهم مثل.

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها

يقول ابن الجوزي: لا يهوِّل عليك أحد بذكر الأحاديث الضعيفة الموضوعة كأن يقول: أن الرسول ﷺ رأى سراجين في بيته فقال: والله لا يجتمع سراجان في بيت محمد ﷺ.

فهذا حديث موضوع.

وكقولهم: صُفّ له ﷺ طعامان على سُفرته فقال: والله لا آكل طعامين.

وهذا حديث موضوع.

وكقولهم لما قُدِّم اللحم للرسول ﷺ.

قال: لا آكل اللحم لأني أخاف أن لا يطعمني الله إياه في الجنة.

وهذا حديث موضوع أيضاً.

بل الصحيح أن تأخذ السيرة النبوية من صحيح البخاري ومسلم ومن السنن الأربع ليرى الإنسان كيف يعيش معلم الإنسان ﷺ، وقد ذكرت كثيراً من أحواله ﷺ في رسائل من هذا المجموع.

فالواجب على المسلم أن يستمتع بالمباحات التي تعينه على الطاعات وعلى مواصلة طريق الجنة، ولكن دون إسراف يؤثر أو يعيق ذاكم المسير.

كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾.

وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي أن المؤمنين سيتمتعون بها إن شاء الله في الجنة دون أن يشاركهم أحد.

أما في الدنيا فإنك قد تجد الكافر يتمتع بالزينة والطيبات أكثر من المؤمن الموحِّد، ولكنه لا خَلاقَ له عند الله.

بل كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾.

ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

فالوسط الوسط عباد الله تبلغوا، وكل امرىء عالم بما يصلح نفسه:

أهو التسامح قليلاً في المباحات؟

أم هو التضييق قليلاً على النفس؟

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

أسأل الله لي ولكم حياةً وسطاً، وأن يجنِّبنا خُرافات الصوفية وحياة المترَفين.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

كن في الدنيا كأنَّك غريب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

الحمد لله حمداً حمداً، والشكر لله شكراً شكراً.

والصلاة والسلام على حامل لواء العز في بني لؤي، وصاحب الطَّود المنيف في عبد مناف بن قصي، صاحب الغرَّة والتحجيل المذكور في التوراة والإنجيل، المعلم الجليل الهادي النبيل، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تكون لي ولكم حجة عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

أما بعد.. هذا حديث عن الغربة يوم يعيش المسلم غريباً بين أهله، وغريباً في حيِّه، وغريباً في مجتمعه، وفي أمته.

ولنستمع خاشعين إلى حديث المصطفى ﷺ الذي يفيض روحانية وهداية ونوراً، وكأنَّ لسان الحال يقول:

بـالله لـفـظـك هـذا سـال مـن عـسـل
أم قـد صـبـبـت عـلـى أفـواهـنـا الـعـسـلا
أم الـمـعـانـي الـلـواتـي قـد أتـيـت بـهـا
أرى بـهـا الـدُّر والـيـاقـوت مـتَّـصِـلا
لـو ذاقـهـا مُـذنِـفٌ قـامـت حـشـاشـتـه
ولـو رآهـا غـريـب داره لـسـلا

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، وقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحَّتك لسقمك، ومن حياتك لموتك» رواه الإمام البخاري وابن ماجه والإمام أحمد والبيهقي وأبو نُعيم وجمعٌ غفير من أهل العلم.

والحديث فيه قضايا:

أولها: راوي الحديث هو عبدالله بن عمر.

عاش مع الرسول ﷺ الإيمان والحب والطموح وتعلَّم في مدرسته.

وله أحاديث كثيرة.

ذكر وكيع في كتاب الزهد بسند حسن أن ابن عمر رضي الله عنه وأرضاه، من كثرة خشيته لله عز وجل، ومن كثرة بكائه، قرأ يوماً من الأيام سورة المطفِّفين حتى بلغ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾. فبكىٰ حتى أغمي عليه.

لأنها والله كلمة من أعظم الكلمات، وهي والله عبرة للمعتبِر يوم يتصوَّر المسلم والمسلمة والذكر والأنثى: يوم يقوم من القبر لرب العالمين.

أي منظر هذا؟ وأي هول هذا؟

ولذلك روى ابن كثير أن الخليفة العباسي المهدي دخل المسجد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام، فقام له الناس جميعاً إلا ابن أبي ذئب الزاهد العابد العالم لم يقم.

فقال له المهدي: قام لي الناس إلا أنت؟

قال: كدت أقوم فذكرت قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾. فتركت هذا القيام لذلك اليوم.

قال المهدي: اجلس فوالله ما بقيت شعرة في رأسي إلا قامت.

ومن صلاح ابن عمر رضي الله عنه قوله في صحيح البخاري: كنت أعزباً، وكنت أنام في المسجد وكان الناس يرون الرؤىٰ فيعرضونها على رسول الله ﷺ بعد صلاة الصبح.

فأراد ابن عمر أن يشارك الناس، فكان يتمنى أن يرى رؤيا في المنام لعله أن يعرضها على المصطفى ﷺ.

قال: فرأيت في المنام كأن رجلين أتياني فأخذا بيدي فذهبا إلى بئر مطوية لها قرنان. فخفت وفزعت.

فقالا لي: لم تُرَع. لم تُرَع. أي: لا تخف، لا تخف.

قال: ثم أعطياني قطعة من حرير لا أشير بها إلى روضة في الجنة، إلا طارت بي إلى تلك الروضة أو كما قال.

فاستحيا أن يعرض الرؤيا على الرسول ﷺ فعرضها على حفصة أخته، فعرضتها على الرسول ﷺ. فقال: «**نعم عبدالله لو كان يصلي من الليل**».

قال نافع: والله الذي لا إلٰه إلا هو، ما كان عبدالله بعدها ينام من الليل إلا قليلاً.

وكان يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم أني ما تركت الخلافة لقريش إلا من مخافتك.

ثانياً: يقول ابن عمر رضي الله عنهما: أخذ ﷺ بمنكبيَّ، وفي لفظ: بمنكبي.

لأن الأخذ بالمنكب له دلالة وأي دلالة.

لقد كان ﷺ حبيباً إلى القلوب، وكان سهلاً إلى الأرواح، وكان ليناً كما وصفه الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

فكان ربما شبك أصابعه بأصابع أحد الصحابة ليظهر الأنس والوداد، والقرب.

يقول معاذ كما في سنن أبي داود بسند صحيح: أخذ ﷺ بيدي، فقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك، فلا تدع في دُبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**».

وجاءه جرير بن عبدالله البجلي، فقال: يا رسول الله أنا رجل لا أثبت على الخيل.

فضرب في صدره، وقال: «**اللهم اجعله هادياً مهدياً**». متفق عليه.

فثبت على الخيل بإذن الله.

أي حب، وأي سعة صدر، وأي فيض من الحنان تركه في الدنيا ﷺ؟

لقد كان ابن عمر شاباً في تلك الفترة، والشباب تغره نفسه بالعُجب، والزهو، واللبس، والعطر، والأخذ، والعطاء، والتناول.

لكنه ﷺ أعطاه درساً لن ينساه.

حتى علَّق قلبه بالجنة، وجعله يسير بين الناس يحمل الغربة بأنواعها.

فقال له ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب**». أرأيت الغريب الذي نزل في بلدة ليس له فيها زوجة ولا ولد، ولا والد، ولا أحباب، ولا أصحاب، ولا أصدقاء، ولا أحبَّاء.

وليس له دار، ولا قصر، وليس له مزرعة، ولا بستان، فالرسول يريد من ابن عمر ومن المسلم أن يكون مثله.

غـريـب مـن الـخِـلاَّن فـي كـل بـلـدة
إذا عـظـم الـمـطـلـوب قـلَّ الـمـسـاعـد

فهذه الدنيا كاسمها هي من (الدنو)، أو من (الدناءة)، فهي قليلة النفع.

ولذا قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

هذه الدنيا يريد ﷺ منا أن نكون غرباء فيها.

والغربة على أنواع:

غربة الرجل في أهله وفي بيته يوم يريد الإسلام، ولكن زوجته وأطفاله وجيرانه لا يريدون له الإسلام ولا الهداية.

فهو في حرب وصراع معهم.

وغربة الشاب في بيته وبين أسرته يوم يهديه الله عز وجل صراطاً مستقيماً، ويوم يدله على سبيل النجاة، فيجد أن أول من يحاربه هو البيت، وأبوه، وأمه، وأخوه، وأخته، فيقف غريباً.

وهذه والله غربة من أعظم الغرب.

وغربة المرأة الصالحة في بيت لا يدين بالولاء للسنة ولا للاستقامة، فتبقى غريبة تصارع الأحداث بضعفها لأنها تريد من بيتها أن يكون بيتاً إسلامياً مستقيماً على هدي محمد ﷺ، فتفاجأ فإذا البيت يحاربها، والزوج والأب والابن، حينها تكون غريبة في بيتها، ولها ما للغرباء في الجنة.

والغرباء جزاؤهم أن يُرفع مقامهم عنده سبحانه وتعالى.

قوله: «**كن في الدنيا كأنك غريب**» هذا تشبيه، وإلا فالحقيقة أنه ليس بغريب.

وللغرباء صفات:

أولاً: هم قوم يعتقدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويعتقدون ما يعتقده أصحاب رسول الله ﷺ.

ثانياً: الغرباء لا يفارقون الصلوات الخمس جماعة إلا من عذر قاهر شرعي.

ثالثاً: والغرباء يُظهرون السنة على محياهم: في ملابسهم وفي حركاتهم وسكناتهم.

رابعاً: والغرباء دَيْدَنهم قراءة كتاب الله عز وجل وتدبُّر القرآن.

خامساً: والغرباء يتدارسون السنة، ويعملون بالسنة، ويحبُّون السنة.

سادساً: والغرباء لا يجدون ضغينة على عباد الله وعلى المسلمين كافة جماعات وأفراداً، وأحزاباً، وانتماءات، ما داموا تحت مظلة الإسلام، وتحت مظلة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت مظلة منهج أهل السنة والجماعة.

وقد ذكر الذين صنفوا في هذا الموضوع كأبي عثمان الصابوني، وابن بطة، وأبو الوفاء، وابن الجوزي صفات الغرباء ووصفوهم وصفاً عجيباً.

ومجمل الصفات وملخصها أن يكون الغرباء أتقياء وأولياء لله تبارك وتعالى.

قال تعالى في هؤلاء الغرباء في الدنيا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

حضرت الوفاة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وكانت عنده امرأته فاطمة بنت عبدالملك.

فقال: يا فاطمة: اخرجي من بيتي فإني أرى نفراً ليسوا بإنس ولا جن.

قال أهل العلم: هم ملائكة.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وذُكر عن الإمام أحمد وهو في سكرات الموت، الزاهد العابد الذي أصبح جسمه كالعود من كثرة الصيام والعبادة، وكثرة الإنابة والدعاء.

الذي كتب أربعين ألف حديث، وحفظ ما يقارب ألف ألف حديث مع الآثار والموقوفات والمقطوعات.

والذي وقف حصناً لأهل السنة في وجه البدعة، وجُلد بالسياط.

فلما حضرته سكرات الموت، جاء إبليس يصارعه حتى في سكرات الموت.

فأخذ يعض أنامله ويقول للإمام أحمد: فُتّني يا أحمد.

والإمام يقول: لا بعدُ، لا بعدُ.

أي أنني لا أزال أخشى مكايدك يا خبيث، وألتجىء إلى ربي في آخر لحظة من حياتي.

قوله ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب**». ثم ترقّى ﷺ إلى درجة أعلى، فقال: «**أو عابر سبيل**». وعابر السبيل أعظم من الغريب لأن الغريب يقيم يوماً أو يومين أو ثلاثة أو شهراً، أو سنة، لكن عابر السبيل لا يقيم إلا قليلاً ثم يمر مرَّ السحاب.

وأعرف الناس بالدنيا وبحقيقة الدنيا هو محمد ﷺ، وقد كان يقول: «**ما لي وللدنيا، إنما مَثَلي ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها**». حديث صحيح رواه البخاري.

وكان ﷺ يمضي ثلاثة أيام لا يجد كِسرة خبز وتمر، فما لنا نشبع نحن من الموائد الشهية؟ ونركب المراكب الوطيّة؟ ونسكن في الفلل البهية؟

كفاك عن كل قصر شاهق عمدِ
بيت من الطين أو كهف من العلم
تبني الفضائل أبراجاً مشيدة
نصب الخيام التي من أروع الخيم
إذا ملوك الورى صفوا موائدهم
على شهي من الأكلات والأُدُم

صـفـفـت مـائـدة لـلـروح مـطـعـمـهـا
عَـذْبٌ مـن الـوحـي أو هـديٌ مـن الـكَـلِـم

وكان بيته من طين إذا نام فيه وصل رأسه إلى الجدار، ورجلاه إلى الجدار الآخر.

عاش عبداً رسولاً، لكن ادَّخرَ الله له الرضوان عنده ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

يقول وهو يتلو هذه الآية ويبكي بأبي هو وأمي: «**والذي نفسي بيده لا أرضى وأحدٌ من أمتي في النار**»[١]. فصلَّى الله وسلَّم عليه تسليماً كثيراً.

فعابر السبيل لا يأخذ إلا ما يكفيه في الطريق.

دخلوا على أبي ذر رضي الله عنه وأرضاه وهو في سكرات الموت يبكي قالوا: ما لك؟

قال: استثقلت من الدنيا، وأكثرت من الدنيا، وورائي عقبة كؤود لا يجيزها إلا المُخِفّ.

فنظروا في بيته فوجدوا فراشاً يفترشه وقَعْباً وصحفة وعصا.

أهذا الاستكثار من الدنيا؟

قال: إن خليلي ﷺ قال لي: «**ليكن زادك في الدنيا كزاد الراكب، ليكن متاعك من الدنيا كمتاع الراكب**»[٢] رضي الله عنه وأرضاه.

أرسل عمر رضي الله عنه وأرضاه سلمان الفارسي إلى العراق.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٥٧/٤).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩٩/١).

سلمان الذي استجاب للا إله إلا الله.

سلمان الذي كفر بالطاغوت.

سلمان الذي ترك النار وعَبَدَةَ النار، وأباه وأهله، وأجداده، وزوجته، وأطفاله، وأتى يطوي القِفار، والبحار، حتى وصل إلى المدينة، فكان جزاؤه أن يقول له ﷺ: «**سلمان منَّا آل البيت، سلمان منَّا آل البيت**»(١). وهو والله وسام من أعظم الأوسمة.

يجلس العرب في حلقة فينتسبون لأجدادهم وترابهم فيقولون لسلمان: من أبوك؟

قال:

أبـــي الإســـلام لا أبَ لـــي ســـواه
إذا افـــتـــخـــروا بـــقـــيـــس أو تـــمـــيـــم

رضي الله عنك وأرضاك.

أرسله عمر رضي الله عنه وأرضاه أميراً إلى العراق، فذهب على حمار.

انظروا صحابة الرسول ﷺ الذين فتحوا الدنيا يركبون الحمير.

فخرج أهل العراق لاستقباله، فلما رأوه قالوا له: أرأيت أميراً أرسله عمر إلينا اسمه: (سلمان الفارسي) في الطريق؟

قال: أنا سلمان الفارسي.

قالوا: لا تضحك علينا.

قال: أنا والله الذي لا إله إلا هو سلمان الفارسي.

---

(١) رواه الحاكم (٣/٥٩٨).

فعجبوا من هذا الدِّين الذي يكون الأمير فيه كأنه أفقر فقير.

فسكن هناك وأخذ راتبه فوزعه على ثلاثة أقسام: قسم يتصدَّقه، وقسم يهديه لإخوانه، وقسم يتقوَّت به.

فهؤلاء الأجلاَّء هم الذين عرفوا حقيقة الغربة فجعلوها في حياتهم.

ويرسل عمر أيضاً سعيد بن عامر الصحابي الجليل إلى الشام إلى حمص.

فيقول: اعفني يا أمير المؤمنين.

قال: أتجعلون الخلافة في عنقي، ثم تتركوني، والله لتتولينَّ الإمرة.

فذهب رضي الله عنه وأرضاه، فقالت زوجته: عندي مال كثير أعطيه لك تضعه في تجارة أو تتقوَّت به لك.

فأخذ المال فتصدَّق به في سبيل الله.

فقالت: أين المال؟

قال: أعطيناه شريكاً يضاعف به الدرهم لواحد سبعمائة درهم.

فآمنت وسكتت وصَدَّقت.

فدخل حمص والياً.

وكان هذا الغريب يعدل في الناس ويصلي بهم، حتى مر عمر رضي الله عنه وأرضاه على أمرائه وولاته في الأقاليم عندما ذهب إلى فلسطين، فسأل أهل حمص: كيف تجدون سعيد بن عامر؟

فكلهم أثنى عليه خيراً، لكن أخذوا عليه أربعاً من الخصال.

قال عمر رضي الله عنه وأرضاه: اللهم إني ما علمت به إلا خيراً، اللهم لا تخيِّب ظني فيه.

قالوا: أما الأولى فيصرع بين أيدينا أحياناً.

وأما الثانية: فلا يخرج لنا يوماً من أيامه.

وأما الثالثة: فإنه لا يخرج حتى يرتفع النهار.

وأما الرابعة: فإنه لا يخرج في الليل مهما طرقنا عليه بابه.

قال عمر رضي الله عنه وأرضاه وقد نكس رأسه، ودموعه تُهراق على خديه: اللهم لا تخيِّب ظني في سعيد بن عامر قم يا سعيد.

فقام يتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين والله لوددت أني أكتم هذا الأمر، أما والحالة هذه فلا بد من الكلام.

فأما قولهم أنه يصيبني الصرع، فقد حضرت مشهداً، ما وددت أني حضرته، فقد رأيت خبيب بن عدي أحد أصحاب الرسول ﷺ وهو يُقتل في مكة، وأنا مع المشركين آنذاك، فسمعته يقول للكفَّار: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

فكلما تذكرت ذاك المشهد صُرعت ووددت أني نصرته.

وأما اليوم الذي لا أخرج فيه للناس: فأنا رجل ليس لي خادم، وزوجتي مريضة فأغسل ثيابي، وثياب أهلي هذا اليوم، وأنتظر جفافها.

وأما أني لا أخرج إليهم في الليل فقد جعلت النهار لهم والليل لربي تبارك وتعالى.

وأما قولهم بأني لا أخرج حتى يرتفع النهار فزوجتي مريضة فأنا أصنع إفطاري بنفسي، فإذا أفطرت خرجت إليهم.

فرفع عمر يديه إلى السماء قائلاً: الحمد لله الذي لم يخيب ظني في سعيد بن عامر.

سلام على أصحاب محمد ﷺ ورحمة الله وبركاته.

إن لم تؤخذ السيرة والعقيدة والمبادىء الأصيلة والسلوك والرقاق منهم، فمن أين تُؤخذ؟

إنهم هم الذين هدى الله، فبهداهم اقتده.

• أقسام الغربة:

الغربة أقسام وأنواع وهي:

أولًا: غربة أهل السنة بين أهل البدعة.

فالمسلم يتسنَّن بسنّة رسول الله ﷺ في كل شيء، في المعتَقَد، وفي عمل لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، وفي الحضور للجماعات، وفي المحافظة على الفرائض، والنوافل، وفي مضاعفة الحسنات ورفع الدرجات، وفي اللحية، وفي الثوب، وفي السواك، وفي الهدي الظاهر، والباطن، لأنه ليس في الإسلام قشور، وليس في الإسلام توافه، بل كله سنة، وكله يؤخذ جملة وكله عبادة، وشريعة من الله الذي لا إلٰه إلا هو.

لكن أهل البدع يأبون إلا أن يجعلوا أهل السنة يحيون معهم غرباء، عندما يحاولون جهدهم نشر بدعهم، وخرافاتهم، حتى يضلوا بها الناس ويثنوهم ويصرفوهم عن سنته ﷺ.

والبدعة كما عُلِم كثيراً قد بدأت طلائعها قديماً في زمنه ﷺ عندما قال له أحد أجداد الخوارج: (اعدل يا محمد)، أو (إن هذه قِسمةٌ ما أُريد بها وجه الله)، يقصد قسمة الرسول ﷺ في الغنائم!!

ثم تطورت البدع رويداً رويداً، حتى ظهرت على السطح بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، فظهرت لنا بدعة الخوارج وبدعة الروافض، والناصبية.

ثم استمر الحال إلى أن لاحت بدعة المعتزلة ثم الصوفية، ثم الأشاعرة.. إلخ.

وهكذا يستمر مسلسل البدع في عالم الإسلام حتى كادت تطغىٰ على السنة في بعض الأعصار لولا أن الله حافظ دينه.

فأصبحت السنة غريبة على كثير من الناس، حتى ممن فيهم الخير الكثير، لكنهم يستنكرون بعض السنن أو قد يلومون أصحابها ويحاولون صرفهم عنها برغم ثبوتها في الأحاديث الصحيحة.

فما بالك بأهل الفجور من أصحاب البدع الغليظة التي لا ترقب في أهل السنة إلاً ولا ذمة، بل تحاربهم في كل مكان؟

هذه هي الغربة الأولى: غربة أهل السنة بين المخالفين لها.. وهم كثير.

الغربة الثانية: غربة أهل الإسلام ككل مع غير المسلمين حيث ينتشر الكفر في كل مكان على وجه الأرض، ويحاول أن يطوّق المسلمين في نواحيهم لئلا ينتشر الإسلام في الآفاق، ولكن: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وقد قال ﷺ في صحيح مسلم: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً فطوبى للغرباء**».

الغربة الثالثة: غربة المستقيمين من أهل السنة مع العصاة أو غير المستقيمين.

حيث استنكار السنن، والمضايقات والاستهزاء والسخرية.

فالواجب على المسلم المتَّبع لله ولرسوله ﷺ أن يصبر ويحتسب الأجر في ذلك كله، وأن لا يتضجر لأن هذا الطريق هو طريق الهداية وقد سلكه قبله الأنبياء والصالحون منذ قديم الزمان.

وليعلم أن الغربة قد تختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان.

أيها المسلمون: كونوا في الدنيا غرباء أو عابري سبيل.

وإذا أصبحتم فلا تنتظروا المساء.

وإذا أمسيتم فلا تنتظروا الصباح.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❁ ❁ ❁

يا حسرتاه تقضَّى العمر

أهمية الوقت

ما هي الحياة إلاّ الدقائق والثواني، وما هي الحياة إلا الأيام والليالي، وما هي الحياة إلا الأنفاس، الوقت هو الحياة، الوقت أغلى من الذهب والفضة، الوقت أغلى وأرفع من الشهرة والمنصب ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

يا مَن خُلقَ للعبادة، يا مَن خُلق لحفظ وقته مع الله، يا مَن خُلق لرسالة عظيمة، هل حاسبت نفسك في وقتك؟ وفي أيامك؟ وفي لياليك؟ وهل عرفت أين ذهبَت دقائقك وثوانيك؟

نروح ونغدو لحاجاتنا   وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته   وتبقى له حاجةٌ ما بقي

يقول ﷺ: «**اغتنم خمساً قبل خمس: اغتنم شبابك قبل هرمك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وصحتك قبل سقمك،**

وغناك قبل فقرك» أو كما قال ﷺ[1].

أقبلت إجازة الربيع على البنين والبنات، وعلى الدَّارسين والدَّارسات، وهي إجازة في عُرف البشر ولكنها ليست إجازة عند رب السموات والأرض، فالمسلم ليس له عطلة ولا راحة حتى تدخل قدماه الجنة.

ولو أنا إذا متنا تُركنا لكان الموت غاية كل حي
ولكنا إذا متنا بُعثنا ويَسألُ ربنا عن كل شي

فليس لنا إجازة ولا عطلة. يعطينا البشر إجازات وعطل وراحات، ولكن رب البشر يقول: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ لا نُعطل ليلاً ونهاراً. فملَك الحسنات يسجّل ويقيِّد، وملك السيئات يحسب ويحصي. فأين المفر من الله إلا إليه؟.

يقول عطاء بن رباح لشباب مرَّ بهم صامتون ساكتون: ما لكم لا تسبِّحون ولا تذكرون، أتنسون أن عليكم ملائكة يكتبون ما تفعلون؟ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الترمذي وأبو نعيم في الحلية مُرسلاً. وأخرجه الحاكم (٣٠٦/٤)، وصحّحه من طريقٍ أخرى عن ابن عباس مرفوعاً. ووافقه الذهبي.

أقسام الشباب في العطلات الصيفية

حين تأتي هذه العطلة ينقسم شباب الإسلام إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ ظالم لنفسه.

٢ ـ مقتصد.

٣ ـ سابق بالخيرات.

أولاً ـ الصنف الظالم لنفسه:

فأما الظالم لنفسه، فشاب ظن أن الحياة غناء ورقص، ولعب ولهو، وأكل وشرب ونوم، وذهاب وإياب. وما عَلِمَ أن الله سوف يسأل عن كل دقيقة من دقائق حياته.

شاب جعل هذه العطلة أو الإجازة للشهوات وتناول المخالفات ولتضعيف السيئات ونسي رقابة الواحد الأحد رب الأرض والسموات.

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

شاب نسي مراقبة الله، وعين الله، ولقاء الله، يسمع العود والغناء، يرقص مع كل راقص. نسي أنه ابنٌ لخالد بن الوليد الذي

أسمع أذن الدهر، وخطب على منبر الدنيا، وأسال دم الوثنية في الأرض لترتفع راية لا إله إلا الله.

نسي أنه ابنٌ لسعد بن أبي وقاص الذي دكَّ إيوان كسرى وكبّر في الإيوان وانصدع فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

نسي أنه ابنٌ لعمر بن الخطاب الذي إذا ذُكر في مجالس القياصرة والأكاسرة أغمي عليهم!

يا من يرى عمراً تكسوه بُردته والزيت أُدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرطاً وملوك الروم تخشاه

وأبناء عمر، وأبناء خالد، وأبناء سعد، يخرجون مغنِّين راقصين لاعبين مشجِّعين. لا والله. هذا باطل وظلم وجَوْر.

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوَّدَه أبوه

فيا رب، هذه هي الأمة التي رفعت اسمك على النجوم لا تضيِّع آخرها واحفظها كما حفظت أولها. يا رب، هؤلاء أبناء الذين أسكتوا البشرية ليسمعوا كلامك الإنسانية.

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما صرنا على موج البحار بحارا

مَن المسؤول عن إخراج أجيال عمر وخالد وسعد ليصبحوا في الساحة مغنِّين ومغنيات، وراقصين وراقصات.

هذا الصنف من الشباب يتحرَّى الإجازة بلهب ليذهب في كل مذهب، أما الصلوات فلا تسأل عنها فقد ضيّعها، وأما القرآن فهجره، وأما الذكر فلا يعرفه، وأما المسجد فما اهتدى إليه.

قرآنه المجلة الخليعة، وتلاوته الأغنية الماجنة، وجُلاَّسه كل خسيس من الدنيا.

ثانياً ـ الصنف المقتصد:

وأما الصنف الثاني فمقتصد لم يستغل الإجازة في معصية الله، بل استغلها في المباحات، يؤدي الفرائض وينتهي عن المحرَّمات.

ينام نوماً عميقاً، فإذا استيقظ اشتغل بالزيارات والنزهات والفسحات.

فأين استثمار الوقت؟ أين القراءة؟ أين التلاوة؟ أين التحصيل العلمي؟

يقول الغزالي رحمه الله: من نام من كل أربع وعشرين ساعة ثماني ساعات فقد نام من عُمُره ستون سنة عشرين سنة. ثم تبقى له أربعون سنة ما بين لهو ولغو ومعاصي ومخالفات وشغل بالدنيا وبالدرهم والدينار.

ثالثاً ـ صنف السابقين بالخيرات:

هم شباب الإسلام، وهم نجم التوحيد، وهم كوكبة محمد ﷺ وهم الفجر لهذا الدين. إنهم شباب عرفوا الحياة وعرفوا أنهم سوف يقفون بين يدي علاَّم الغيوب، وعرفوا أن الستين سنة والسبعين هي مزرعة للآخرة. وعرفوا أن السلف الصالح استثمروا أوقاتهم في مرضات الله.

كان سعيد بن المسيِّب رحمه الله ينام قليلاً ثم يستيقظ فيقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شرٍّ، والله لا تنامين حتى الفجر.

ويقول الأسود بن يزيد وكان يَسرد الصوم فيقول له الناس: خفِّف

على نفسك من الصيام فيقول: إذا أصبحتُ في القبر فمن يصوم عني؟ ومن يصلّي عني؟ ومن يقرأ عني؟ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

هل رأيتم ميتاً في قبره يصلي؟ هل رأيتم ميتاً يصوم؟ هل رأيتم ميتاً يذكر الله؟

أبني أبينا نحن أهل منازل   أبداً غُراب البَين فيها ينعق
نبكي على الدنيا وما من معشر   جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الألى   كنزوا الكنوز فلا بقينا ولا بقوا
خُرْسٌ إذا نودوا كأن لم يعلموا   أن الكلام لهم حلال مطلق

هذا الشاب سابق بالخيرات، كتاب الله خِدْنه ورفيقه، صديقه ورضيعه وربيع قلبه. لا تفوته الصلوات ولا تكبيرة الإحرام في جماعة.

حضرت الأعمش الوفاة فبكى أبناؤه. فقال لهم: ابكوا أو لا تبكوا، والله ما فاتتني تكبيرة الإحرام ستين سنة.

لأنه يريد جنة عرضها السموات والأرض.

هؤلاء الشباب مقبلون على العلم إقبالاً جازماً وعازماً على تحرير المسائل وعلى التحقيق وعلى استثمار الوقت. لا تفوتهم دروس الهدى والخير ومحاضرات العلم والإيمان.

دروسهم دعوة، وجلساتهم إيقاظ وصحوة، وحركاتهم طاعة. فهؤلاء الذين سبقوا بالخيرات ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾.

فيا شباب الإسلام، يا أيها الفضلاء، يا أيها النبلاء، ألا تريدون أن تكونوا من السابقين بالخيرات الذين ليلهم طاعة، ونهارهم تسبيح وزلفى وقربى من الله. كمصعب بن عمير، وسعد، وخالد، كطارق وصلاح الدين؟

فهم:

عُبَّاد ليل إذا جُن الظلام بهم كم عابد دمعه في الخدِّ أجراه
وأُسْدُ غاب إذا نادى الجهاد بهم هَبُّوا إلى الموت يَسْتَجْدون رؤياه
يا رب فابعث لنا من مثلهم نفراً يُشيدون لنا مجداً أضعناه

في كتب الحديث بسند صحيح أن شباباً أتوا رسول الله ﷺ فقال: **«ماذا تريدون؟»** فكلٌّ منهم طلب من مطالب الدنيا ومن مقاصد الحياة، هذا يريد ثوباً فيعطيه ﷺ ثوباً، وهذا يريد دنانير ودراهم فيعطيه ﷺ دراهم ودنانير، والثالث يطلب طعاماً فيعطيه.

أما أحدهم فتوقف وقال: يا رسول الله، أريد أن تناجيني لطلب بيني وبينك فخلا به ﷺ.

قال: إنني لا أريد دنيا يا رسول الله، ولكني أريد مرافقتك في الجنة.

فقال ﷺ: **«أو غير ذلك»**، قال: هو ذاك يا رسول الله.

قال: **«فأعِنّي على نفسك بكثرة السجود، إنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة»**(١).

هؤلاء شباب الإسلام وهذه طريق الجنة وبهذا يستثمر الوقت.

قال الذهبي: ثبت عن الإمام أحمد أنه كان يصلي غير الفرائض في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة، فلما سُجن وضُرب في سبيل الله ومن أجل رفع لا إله إلا الله، ما استطاع أن يصلي إلا مائة وخمسين ركعة من غير الفرائض.

---

(١) هما حديثان. الأول: قوله ﷺ لربيعة بن كعب: **«أعنّي على نفسك بكثرة السجود»**، والثاني: قوله ﷺ لثوبان: **«عليك بكثرة السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة»**، رواهما مسلم.

قال الذهبي: وممن كان يصلي صلاة طويلة من العشاء إلى الفجر عليٌّ بن الحسين زين العابدين، كان إذا أطلَّ عليه الليل وأقبل عليه النهار توضأ وأتى إلى فراشه وقال: ما أحسنك وما أدفأك وما أرْوَحك، ولكنْ في الجنة أحسن منك وأروح منك وأدفأ منك، والله لا أنام حتى الصباح. فكان يصلي حتى الفجر، فإذا طلع الفجر رؤي على وجهه قبس من نور وشعاع من ضياء.

قالوا للحسن البصري: ما للذين يقومون الليل على وجوههم نور؟ فقال: خلوا بالله فأكسبهم نوراً من نوره.

وقال ابن رجب: كان خالد بن معدان يسبِّح كل يوم مائة ألف تسبيحة. فلما سُئِل لماذا تسبِّح مائة ألف؟ قال: ديتي مائة ألف درهم. فأنا أسبِّح مائة ألف قدر ديتي لعل الله أن يُعتقني من النار.

إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرماً ... قد شبتُ في الرق فأعتقني من النار

يا شباب الإسلام، يا جيل محمد ﷺ، يا حفَظَة دولة الإسلام، يا من دكَّ أجدادهم دولة الأصنام، أنتم مرشحون للعودة إلى الله، وأنتم مرشحون لقيادة البشرية، وأنتم مرشحون لقيادة الإنسانية.

من يقود الناس إلا أنتم؟ ومن يهدي إلا أنتم[1]؟ ومن يوجه الناس إلا أنتم؟.

اللهم رُدَّنا إليك رداً جميلاً، وكفِّر عنا سيئاتنا، وأصلح بالنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، واجعلنا ممن يقود الناس إلى جنة عرضها السموات والأرض، وصلَّى الله على سيدنا محمد. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

(١) هداية دلالة وإرشاد. [الناشر].

الدنيا الحقيرة

إن الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾.

أما بعد..

أيها الناس، يقول الله جلّت قدرته: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

هذه حقيقة الدنيا وهذه حقيقة الآخرة.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ نصبح لاعبين إذا أصبحنا بلا دين.

ونمسي لاعبين، إذا أمسينا بلا دين.

ونعيش لاعبين، إذا عشنا بلا دين.

ونموت لاعبين، إذا متنا بلا دين.

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ أي: طلاء وبريق ولمعان، ولكن الحقيقة للآخرة والبقاء للآخرة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

كيف يجوع الرسول ﷺ في الدنيا، ويموت كسرى وقيصر حَبَطاً وتُخمةً من الأطعمة والأشربة؟

كيف يعيش ﷺ في بيت من طين، ويعيش كسرى وقيصر في قصور الذهب والفضة والزبرجد؟

كيف يكتسي ﷺ فلا يجد إلا قطعة من القماش يداولها زمناً، ويتحلّى كسرى وقيصر بالإبرَيْسم والحرير؟

يدخل عمر رضي الله عنه وأرضاه على الرسول ﷺ في مَشْربه (غرفة) والرسول ﷺ نائم وقد اعتزل نساءه.

فرأى الرسول ﷺ مضطجعاً على حصير وقد أثّر الحصير الخصف وهذا اللحاف في جنبه ﷺ.

فنظر عمر إلى البيت فرأى شيئاً من شعير معلّق في السقف.

فدمعت عين عمر.

فقال له ﷺ: ما لك يا ابن الخطاب؟

قال: يا رسول الله كسرى وقيصر وهم أعداء الله فيما تعلم، وأنت رسول الله وحبيب الله وأنت في هذه الحالة.

فيقول ﷺ: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أما ترضى أن تكون لهم الدنيا وتكون لنا الآخرة؟**»[1].

أما ترضى أن يأكلوا ويسكنوا القصور ويتولوا ما أرادوا، ويتفكّهوا بما أرادوا، ويتمتعوا بما أرادوا، ولكن الآخرة بجناتها وأنهارها وقصورها للمتقين ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول الشافعي رحمه الله:

تموت الأُسْدُ في الغابات جوعاً   ولحم الضأن تأكله الكلابُ

هكذا حكمة الباري بألاّ يُعطي هذا الدين إلا من يُحب، وأما الدنيا فيعطيها من يحب ومن لا يحب، بل يعطيها الزنديق الملحد والرِّعْديد المنافق والفاجر المتهتِّك.

صحّ عنه ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لو أن الدنيا تساوي عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء**»[2]، لكنها حقيرة وزهيدة، فما رضيها الله لعباده وما رضيها رسول الله ﷺ للصحابة.

لقد قُطعت أجسامهم في سبيل الله، وضُربت أبشارهم، وسُفكت

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

دماؤهم، وقُطعت رؤوسهم، وهم يبايعون ويقدِّمون أرواحهم ويقولون: يا رسول الله ما لنا إذا نصرك الله؟

فما قال: المناصب، وما قال: المُلك، وما قال: الأموال، بل قال: الجنة.

فقام ابن رواحة أحد الشباب الأبطال وقال: ربح البيع يا رسول الله، والله لا نقيل ولا نستقيل.

فهو بيع مُبْرَم، والله لا نعود فيه ولا ننكث البيعة، وسوف ترانا نقدم أنفسنا ما دام أنك قد ضمنت لنا الجنة وأتيت بالعقد من السماء.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

كان سالم مولى أبي حذيفة أحد الموالي من أصحاب الرسول ﷺ يحفظ القرآن، فخرج من المدينة مع جيش المسلمين إلى اليمامة ليقاتل مسيلِمة الكذاب، فلما بدأت المعركة ذهب فاغتسل وتحنَّط ولبس أكفانه وكسر غِمده على ركبته، ثم قاتل حتى قُتل، وقال قبل أن يُقتل: بئس حامل القرآن أنا إذا انهزمت اليوم، فذهب ولم يبقِ قليلاً ولا كثيراً.

والمقصود من هذه الحقائق التي ذكرها الله عز وجل أن يعلم الإنسان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، ومن هم أهل الجنة ومن هم أهل النار.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ اعلموا إن كنتم تعلمون، واسمعوا إن كنتم تسمعون، وافهموا إن كنتم تفهمون.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

بوّب البخاري باباً يقول فيه: (باب) ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه من شظف العيش.

قال أبو هريرة: أصابني جوع، الله به عليم، حتى والله الذي لا إله إلا هو إني كنت أُصْرَع بين المنبر وبيت الرسول ﷺ.

قال: فيأتي الصحابي فيظن أن بي مسّاً من الجن.

فصليت ليلة من الليالي مع الرسول ﷺ وقد أصابني من الجوع ما الله به عليم، وفي بعض الروايات: ما كنت أدري ما يقرأ بنا في الصلاة.

فلما أنهى الصلاة خرجت لأتعرَّض للناس لعلهم يأخذونني إلى بيوتهم ليطعمونني.

لكن هل يعرض نفسه ويقول: أطعموني؟ هل يقول: أشْبِعُوني واسقوني؟

لا.. بل كان يعرض نفسه، فيسألهم عن بعض الآيات من القرآن لعلهم يفهمون مقصده فيضيفونه! فتعرَّض لأبي بكر، لكنه لم يفهم ما يريد بل أجاب على سؤاله ومضى! وهكذا عمر رضي الله عنهم!

قال: فخرج ﷺ فتعرَّضت له، فوالذي نفسي بيده لقد بدأني بالكلام قبل أن أبدأه فتبسَّم وقال: تعال معي.

عرف ﷺ أنه لا يحمل سؤالاً ولكنه يحمل جوعاً وظمأً.

قال: فأدخلني في البيت وما فيه كسرة خبز ولا فيه تمرة واحدة ولا زبيبة، وما فيه إلا قَدَح من لبن، فرأيت اللبن فقلت: يسقيني الآن فيرد عليّ جوعي بإذن الله.

فقال: يا أبا هِرّ.

قلت: لبيك وسعديك يا رسول الله.

قال: اذهب إلى أهل الصُّفَّة الفقراء المساكين في المسجد فنادِهم.

فقلت في نفسي: الله المستعان، أنا أولى بهذا اللبن وأهل الصُّفَّة إذا أتوا وهم ما يقارب السبعين أو الثمانين لا يبقون من اللبن شيئاً، فماذا يبقى لي؟ لكن لا بد من أمر الرسول ﷺ.

فذهب إلى أهل الصُّفَّة فناداهم فجاؤوا يُهرعون حتى دخلوا على المصطفى ﷺ، فأعطاهم من اللبن حتى شربوا وارتووا جميعهم، وأبو هريرة يراقب الموقف وقد أُسقط في يده، فلما انتهوا وخرجوا قال ﷺ: يا أبا هر.

قلت: لبيك وسعديك يا رسول الله.

قال: خذ الإناء فاشرب.. فشربت والله حتى ارتويت.

فقال: اشرب.

فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبياً ما أجد له مكاناً.

فأخذ البقية في الإناء فسمّى وشرب ﷺ[1].

لقد ناله ﷺ التعب والجوع، ولم يكن جزاؤه في هذه الدنيا، لأنها دنيا حقيرة توشك أن تزول فهي كظل الشجر، بل العطاء والرضى سيكون في الآخرة إن شاء الله كما قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

دخل عمر رضي الله عنه على إبل الصدقة ومعه مولاه وخادمه، فقال الخادم لما رأى الإبل الحمر كأنها الجوخ: صدق الله يوم يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٢).

فقال عمر: كذبتَ يا عدو الله، ليست هذه رحمة الله ولا فضل الله.

أتدري ما رحمة الله؟ رحمة الله: الاستقامة على أمر الله، والعمل على نور من الله حتى تلقى الله.

يقول تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، تكاثرتم حتى حُملتم على النعوش إلى المقابر.

أتيت القبور فناديتها أين المعظّم والمحتقر
تفانوا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر

ويقول سبحانه عن حقارة الدنيا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، لا ثياب ولا سيارات ولا قصور ولا مناصب ولا أولاد ولا أموال ولا وظائف، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ فلم تأتوا معكم بشيء منها.

وقف علي رضي الله عنه على القبور فبكى وقال: السلام عليكم يا أهل القبور، أنخبركم بأخبارنا؟ أما الزوجات فتزوَّجت، وأما البيوت فقد قُسمت، وأما الأموال فقد وُرثت، هذه أخبارنا فما أخباركم؟

ثم بكى وقال: سكتوا، ووالله لو نطقوا لقالوا: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

لقد وصف الله هذه الدنيا كما سبق كحديقة غنّاء فيها من الزهور والأشجار الشيء الكثير والشيء الجميل والبديع، وتحوم فيها الطيور المغردة والنحل البهي والفراش الملوَّن.

ولكن فجأة.. فإذا الحديقة قد ذبلت أشجارها، وتساقطت ورودها وأزهارها، وولّت طيورها وفراشها.

فأصبحت الأرض كالحة يابسة جافة، حتى تكاد تسأل نفسك وتقول: أهذه هي الحديقة التي مررت بها قبل أيام أو قبل ساعات؟

أين الزهر؟

أين التمر؟

أين البلبل؟

أين الماء؟

لقد ذهب ذلك إلى غير رجعة.

وهكذا حال الدنيا يا عباد الله، تُزهر وتتزين للناظرين، فإذا هي عما قليل قد انطفأت بهجتها.

وضمرت نضارتها وذابت.

ولكن من يعتبر؟

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للعصاة والمعرِضين ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ للطائعين المؤمنين.

أما موعوده سبحانه لأهل الإيمان فقد مضى معنا أنه جنة عرضها كعرض السماء والأرض.

جنة واسعة لا تحيط بها العين ولا تسعى عليها القدم، لأقل واحد فيها مثل مُلْك أغنى أهل الأرض عشر مرات.

وموضع سوط فيها خير من الدنيا وما فيها.

ولكن كل هذا لمن أُعدّ؟ ولمن هُيِّئ؟

قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ دون غيرهم ممن لم يؤمن لا بالله ولا برسله.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ لا فضل غيره: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

فنسأل الله من فضله العظيم، وأن يجعلنا من ورثة هذه الجنة الواسعة وآباءنا والمسلمين.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

لعلَّك تنجو

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

معنا في هذه الأوراق حديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه وأرضاه قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يُقال له ابن اللُّتْبِيَّة على صدقات بني سليم، فلما بعثه ﷺ لقبض الصدقات أتى فقال: يا رسول الله هذا لكم - يعني شيئاً من الصدقة - وهذا أُهديَ إليّ.

فقال ﷺ له: **أفلا جلست في بيت أبيك وأمك فترى هل يُهدى إليك أم لا؟**

ثم قام ﷺ خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **ما بال رجال أبعثهم لقبض الصدقات فيأتي أحدهم فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إليّ، أفلا كان جلس في بيت أبيه وأمه فيرى هل يُهدى إليه أم لا؟**

ثم قال ﷺ: **والذي نفسي بيده لا يأخذ رجل مالاً بغير حق إلا أتى به يوم القيامة.**

وفي رواية مسلم: **ولأعرفن رجالاً يأتون يحملون على رقابهم ما أخذوا إن كان إبل له رغاء، أو بقرة له خوار، أو شاة تيعر.**

ثم قال ﷺ: **اللهم هل بلّغت؟**

وفي المسند من حديث عبدالله بن المغفّل بسند حسن: «**لا يأتي أمير يوم القيامة إلا وهو مغلول.. فإن أصاب في ولايته فكّ الله غلّه، وإن لم يصب تَدَهْدَهَ على وجهه في النار**» أو كما قال ﷺ.

في حديث ابن اللُّتبية عدة مسائل مهمة للأمة منها:

المسألة الأولى: أكبر قضية في هذا الحديث أن من غلّ شيئاً أو أخذه بغير حقه، فضحه الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فضلاً عن معاقبته له. فمن سرق أو غلّ بعيراً مثلاً ولو من بيت مال المسلمين فإن الله تعالى يأتي به أمام الناس يوم القيامة وهو يحمل بعيره وللبعير رغاء يسمعه أهل الموقف ليكون أشد في فضيحته.. فما بالكم بمن غلّ أكثر من بعير؟ وهكذا الغنم وهكذا البقر.. وغيرها.

فأين هؤلاء الغلاّل عن أبي بكر الذي مات وما خلّف إلا ثوبين وبغلة وشيئاً من مال فيقول: اذهبوا لعمر بن الخطاب وقولوا له: يا عمر اتق الله لايصرعنّك الله كمصرعي.

فلما وصلت التَّركة إلى عمر بكى حتى جلس وقال: أتعبتَ الخلفاء بعدك يا خليفة رسول الله.

وعمر لما تولّى ما أخذ قليلاً ولا كثيراً، حتى يقول على المنبر: والله الذي لا إله إلا هو، ما رزأت من مالكم شيئاً إلاّ بُردتين أو ثوبين.. ثوب يلبسه في الصيف وثوب في الشتاء.

وفي حديث في الصحيحين أنه قال ﷺ: «**من غلّ ذهباً صُفِّحت له صفائح فأحرقت به**»، وشاهده في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾.

فالله.. الله أن يراقب الإنسان نفسه مع الله ولا يستصغر أي

مسؤولية: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»، ولو كان درهماً واحداً أو ريالاً.

إنها مسؤولية أمام علاَّم الغيوب سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾.

يقول ﷺ: «**اللهم من تولّى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شقَّ عليهم فاشقق عليه**»[١]. وهذ الحديث صحيح، فمن رفق ورحم رحمه الله، ومن شقَّ عليهم وأخذ أموالهم وأتعسهم أتعسه الله في الدنيا والآخرة.

وفي حديث لكن في سنده نظر: «**الناس عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»[٢].

وقد عرف الصحابة والسلف عِظَمَ مسؤولية الإمرة فلذلك كانوا يستعفون الرسول ﷺ.

يقول الرسول: **اذهب يا فلان أميراً.**

فيقول: اعفني يا رسول الله من الإمرة.

قام ﷺ في الناس خطيباً في المسجد فقال: «**والذي نفسي بيده لا نولّي أحداً منكم على عمل فينقصنا ولو مِخْيَطاً أو شعرة إلا أتى بها يوم القيامة**»[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان وضعَّفه الألباني في المشكاة (٤٩٩٨).

(٣) مسلم (١٨٣٣).

فقام رجلٌ أسمر من الأنصار فقال: يا رسول الله خذ عملك، والله لا أتولى لك عملاً.

قال: ولِمَ.

قال: سمعتك تقول كيت وكيت.

فرفع ﷺ أصبعه وقال: **والذي نفسي بيده لقد قلته: والذي نفسي بيده إنني أقوله الآن: من تولى عملاً فنقصنا مخيطاً أو شعرة ليأتين به يوم القيامة**، أو كما قال ﷺ.

فأحجموا جميعاً حتى يقول عمر: ما أحببت الإمرة في الإسلام إلا مرةً واحدة أثناء فتح خيبر لما قال ﷺ: «**لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ اللّهَ ورسولَه ويحبُّه اللّهُ ورسولُه**»[١].

وكان ﷺ عندما يولي الناس لا ينظر إلى نسب ولا ينظر إلى أسرة ولا ينظر إلى قبيلة، فأتقاهم أقربهم إلى الله وإلى رسوله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. حتى ورد في المسند أن الرسول ﷺ قال: «**لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته الخلافة**»[٢].

ولذلك لما طلب العباس عم الرسول ﷺ منه أن يوليه ولاية قال له: «**يا عم نفسٌ تنجيها خير من إمارة لا تحصيها**».

فما الذي ينفع الإنسان إذا قدم يوم القيامة وقد تولّى إمرة الدنيا جميعاً ثم لم يعدل ولم ينصف ولم يتق الله ثم خسر نفسه.

فأخذها رضي الله عنه وأرضاه وصية من المصطفى ﷺ.

وأتى أبو ذر إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله وليت فلاناً ووليت فلاناً، فلماذا لم تولني؟

---

(١) متفق عليه.

(٢) لعل القائل عمر. راجع الإصابة (١٠٤/٤).

قال: «**يا أبا ذر، والله إني أحبك وأحب لك الخير كما أحبه لنفسي.**

يا أبا ذر إنك رجل ضعيف وإنها أمانة، وإنها خزي وندامة، نعمتْ المرضعة وبئستْ الفاطمة» رواه مسلم.

وأتى سيِّد القراء أبيّ بن كعب إلى عمر فقال: يا عمر كيف تولّي الناس وتتركني؟

قال عمر: والله يا أبيّ.. والله يا أبا المنذر إني أحبك كحبي لنفسي، ولكني تركتك من الإمرة لئلا أدنِّس إيمانك.

فأخذها نصيحةً من عمر، فلم يتولّ ولاية حتى لقي الله سبحانه وتعالى.

هذا هو منهج السلف في تهرُّبهم وبُعدهم عن الإمارة لما علموا عظم مسؤوليتها عند الله يوم القيامة.

قال الخليفة لأبي حنيفة: تولّ القضاء.

قال: لا أصلح له.

قال: أنت كاذب.

قال: كيف تولّي كاذباً!

وورد أن الإمام مالك أرادوه للقضاء وهو أقل من الولاية. فرفض.

ولما تولّى إسماعيل بن علية القضاء كتب له ابن المبارك: ويلك من الله إن في الحديث: «**القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة**»[1].

(١) رواه أبو داود وابن ماجه، وصحّحه الألباني في المشكاة (٣٧٣٥).

فانظر أن تكون من الاثنين.

فكتب لابن المبارك: ما فهمت ما تقول!

قال ابن المبارك: أبى هذا إلا أن نقشر له العصا، فكتب له قصيدة لأنه لم يفهم النثر!

يا جاعل العلم له بازياً يصطاد به أموال المساكين
أين رواياتك فيما مضى عن ابن عون وابن سيرين
إن قلتَ أخطأت فقل لي إذاً زلّ حمار الشيخ في الطين

فلما قرأ القصيدة عرف المعنى فبكى، ثم دخل على هارون الرشيد وطلب العزل من القضاء.

ولكن هذا ليس على إطلاقه، فإن كان هذا المنصب أو الدائرة أو المكان بحاجة لك وأنت إن شاء الله من أصلح الموجودين فلا تتأخر عن توليه.. قال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال عمر لأبي هريرة: تولّ الإمرة.

فقال: والله لا أتولى، أخاف ثلاثاً واثنتين.

قال: قل خمساً!

قال: لا، أخاف ثلاثاً واثنتين.

قال: ما هي؟

قال: أخاف أن يُجلد ظهري، ويؤخذ مالي، ويُسفك عرضي. وأخاف في الآخرة أن يؤتى بي مغلولاً، وأن أرد على وجهي في النار.

قال عمر: يا ابن أم أبي هريرة، أأنت خير أم يوسف الذي يقول: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

قال: يوسف كريم ابن كريم ابن كريم.

وأنا ضعيف ابن ضعيف ابن ضعيف! أو كما قال. وقد صدق رضي الله عنه، فمن وجد في نفسه قوة وأمانة فليتول المنصب وإلا فليهرب منه.

المسألة الثانية: أنه ﷺ كان لا يترك الصدقات في أيدي الناس يتلاعبون بها، بل كان يرسل عمّاله لجمعها.

ففي الصحيحين أنه أرسل معاذاً إلى اليمن وكان مما قال له: «**وأخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ في فقرائهم**».

وممن أرسلهم ﷺ عمر بن الخطاب لجمع الصدقات من الناس، فمرَّ بالناس جميعاً وقال: يا رسول الله كل الناس دفعوا إليّ الصدقة إلا ثلاثة.

قال: من هم؟

قال: عمك العباس، وخالد بن الوليد، وابن جميل.

قال: أما عمي.. أما علمت يا عمر أن عمَّ الرجل صنو أبيه، هي عليّ ومثلها (لأن العباس أسلف الرسول ﷺ لسنتين، فاستحيا أن يقول أعطيتها للرسول ﷺ فأمسك الصدقة).

وأما خالد بن الوليد، فإنكم تظلمون خالداً، لقد احتبس أدرعه وأعتده في سبيل الله.

وفي بعض الروايات قال خالد: هي وقف في سبيل الله.

يقولون معن لا زكاة لماله   وكيف يزكي المال هو باذله

وأما ابن جميل فما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله[1].

فالشاهد أن الرسول ﷺ كان يرسل أصحابه، لكن يُرسل الأُمناء وأهل الاستقامة.

فيُشترط فيمن يتولّى على الزكوات والصدقات والتبرعات أن يكون فيه خصلتان: القوة والأمانة.

كما كان موسى عليه السلام عندما قالت فيه ابنة شعيب: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾. فأمانة بلا قوة ضعف، وقوة بلا أمانة فجور.

وأرسل الرسول ﷺ عبدالله بن رواحة إلى اليهود ليشاطرهم النخل ويخرّص نخلهم.

فلما وصل إليهم.. جمعوا أموالاً ليرشوه!

سبحان الله! ما وجدتم إلا عبدالله بن رواحة الذي ينتظر الموت صباح مساء في سبيل الله، ولا يريد الدنيا إلا لمرضات الله؟

أما وجدتم إلا صحابياً من أصحاب الرسول ﷺ؟

فأتوا وقالوا يا ابن رواحة: خذ هذا المال وراعنا في الخرص.. فاحمرّ وجهه حتى أخذ ينتفض وقال: يا إخوان القردة والخنازير، والله الذي لا إله إلا هو إنكم أبغض عندي من أمثالكم، وإن هذا لا يحملني على الحيف ـ يعني على ظلمكم ـ، والله لا أظلمكم ولا آخذ قِيد أنملة.

قالوا: بهذا قامت السموات والأرض، أي بهذا العدل قامت السموات والأرض.

---

(١) رواه البخاري.

المسألة الثالثة: محاسبة العمال، فحقٌّ على المسلم الذي يتولى ولاية أن يحاسِب من تحت يده من رؤساء المكاتب ومن المسؤولين عن الأقسام والشعب والدوائر، ليلقى الله وقد حاسبهم. فإنّ ترك الأمور دون رقابة ولا محاسبة فمعناه الوهن، ومعناه الفشل والضياع.

والرسول ﷺ في هذا الحديث ـ حديث ابن اللُّتبية ـ حاسب عماله وسأل عن المال وعن الزكاة.

ويقاس على ذلك من كان مسؤولاً في كلية، أو مدرسة، أو معهداً، أو ثانوية، أو دائرة حكومية، أو مصلحة، أو شركة، أو مؤسسة، فعليه أن يتفقد دائماً مَنْ تحتَ يده بالحساب، وبالجلسة، والبحث عن أخبارهم، ومتابعة دوامهم، وحضورهم وذهابهم، وأدائهم للدروس، وتحضيرهم للمحاضرات، فإن الله سوف يسأله عن رعيته وعن أساتذته وعن مَنْ تحت يده. وقصص محاسبة عمر رضي الله عنه لعماله كثيرة.. كقصته مع ابن عمرو بن العاص لما سابق المصري فسبقه.

ومرَّ يوماً فرأى عمارة تُبنى من جُصٍّ في المدينة فقال: لمن هذه؟

قالوا: لواليك على بلدة كذا في الشام.

قال: أبت الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها! والله لا يتولى لي ولاية.. ثم عزله.

وأتاه أحد ولاته واسمه الحارث بن زياد.. فلما رآه يلبس المرقع ويأكل الخبز والزيت قال له: يا أمير المؤمنين غيرك أولى بهذا منك!

فقال: ثكلتك أمك، إني كنت أظن أنك خير من هذا، اذهب والله لا تلي لي ولاية أبداً!

المسألة الرابعة: هدايا العمال غلول، صح ذلك من حديث ابن

مسعود رضي الله عنه وأرضاه[1]. فالهدية التي تقدَّم للعامل وللوالي وللمسؤول من أحد الناس هي رشوة.

لأنه لولا منصبه لما أُهدي له هدية.

فالقلوب يستعبدها الإحسان والهدايا دائماً.

كان المغيرة بن شعبة أميراً في الكوفة فجعل خادمه عند الباب وقال: لا تُدخل أحداً إلا من آذن أنا بدخوله.

فأدخل مَن أذن له إلا واحداً أتى فعرفه فأدخله.

فقال المغيرة: لماذا أدخلته؟

قال: أدخلته لأمر.

قال: ولماذا؟

قال: إنه أحسن إليّ يوماً من الأيام.

قال: أحسنت إن المعروف ينفع حتى في الكلب.

لكن استثنى الفقهاء إذا كان بينهما هدايا من قبل، كأن يكون حبيباً له وليس عنده معاملة له ولا مشكلة ولا شيئاً من أمور الدنيا، فله أن يُهدي إليه ويأخذ هديته.

والرشوة لها أقسام وهي:

١ ـ هدية العمال.

٢ ـ الولائم التي تقام من أجله.

٣ ـ ما يقدم له من الخِدْمات.

٤ ـ إكثار الزيارة له حتى يصادقه.

---

(١) رواه البيهقي (١٠/١٣٨).

٥ ـ مجاورته.

المسألة الخامسة: من مسائل الحديث التعميم في الإنكار بلا تشهير، فنحن أُمرنا أن نكون هيِّنين ليِّنين للمسلمين، وألا نشهِّر بالناس ولا نعلن الأسماء على المنابر. فالرسول ﷺ يعرف أنه ـ أي العامل ـ عبدالله بن اللتبية، ويعرف أنه أزدي من أزد شنوءة، لكنه لم يقم أمام الناس يوم الجمعة ويقول: يا أيها الناس اسمعوا، أرسلنا عبدالله بن اللتبية إلى بني سليم قبل أيام ففعل وفعل!!

أبداً.. فأسلوبه ﷺ أسلوب الحكمة والمصلحة وعدم جرح القلوب.. لئلا يخسر الناس، لعل المخطىء أن يتوب بسرٍّ ودون تشهير.

المسألة السادسة: جواز الخطبة للحاجة، فقد كان ﷺ إذا سمع أمراً حادثاً للناس أو يُحتاج إلى التنبيه عليه قام وخطب الناس.

تكسف الشمس فيقول الناس: كسفت لموت إبراهيم ابنه ﷺ.

فقام وأعلن أنها لا تكسف لموت أحد ولا لحياة أحد.

يأتي الناس فقراء فلا يجدون من يعطيهم، فيقوم ﷺ ويخطب لعل أحداً أن يساعدهم.

المسألة السابعة: الهدية وما ورد فيها:

ورد قوله ﷺ: **«تهادوا تحابُّوا»**(١) وهو حديث حسن.

وورد في حديث حسن آخر: **«الهدية تسلُ السخيمة»**(٢)، والسخيمة هي ما يأتي في القلب من أحقاد بين الناس.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في الإرواء (١٦٠١).

(٢) رواه الترمذي بنحوه وضعفه الألباني في المشكاة (٣٠٢٨).

فحبذا أن تجعلها دَيْدَنك مع جيرانك ومع أقاربك، فتهدي إليهم ولو شيئاً قليلاً لأنها تسل السخيمة وتُذهب الجفاء، وهي أحسن من كثير من المال.

وقف ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه عند زمزم في الشمس، فأتى أعرابي فظلَّل ابن عباس بمظلته وابن عباس يشرب، ثم ذهب الأعرابي وذهب ابن عباس.

وبعد سنوات أتى الأعرابي وقال: يا ابن عباس لي عندك يدٌ أريد أن تكافئني بها.

قال: ما هي؟

قال: رأيتك مع الحجَّاج تشرب من زمزم وقد صَهَرَتْكَ الشمس وقد ظلَّلتك بكسائي.

قال ابن عباس: أهلاً وسهلاً، ثم أجلسه بجانبه فأغدق عليه من المال والأشياء.

وقد كان الرسول ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، أي يكافىء عليها.

فيقول ﷺ: **«لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع لقبلته»**(1).

وهذا من تواضعه ﷺ.. فالحكمة أنك تقبل الهدية إذا علمت أنه لا يترتب عليك مفسدة في عرضك ولا في دينك، لأنك إذا رددت الهدية وَجَدَ صاحبها عليك، وكان هذا سوء تعامل مع الناس.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد.

---

(1) البخاري (٣/٢٠١).

تعرَّف على اللّه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

إخواني في الله، يقول ﷺ من حديث طويل: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة**».

وهذه الوصية قالها أخشى الناس لربِّ الناس، وأعلم الناس بما لرب الناس من جلال وكمال، وأصدق الناس في الوصية للناس. وهي من حديث طويل حيث ركب ابن عباس رضي الله عنهما مع رسول الهدى ﷺ على حمار.

فقال لابن عباس وهو في مقتبَل العمر، شاب في أول الطريق لا يعلم ما الله صانع به، فاختلسها رسول الله فرصة واهتَبلها سانحة نادرة فقال لابن عباس: «**يا غلام**».

فالتفت الغلام، واستمع الغلام، وأنصت الغلام.

قال: «**يا غلام إني أعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو**

اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي بسند صحيح.

ما أحسن الحديث!

وما أعظم الوصية!

وما أجلَّ الخطاب!

تعالوا معنا أيها الناس إلى دعوته ﷺ، وكيف علّم أصحابه أن يعرفوا الله في الرخاء ليعرفهم في الشدَّة.

وهذه سنَّةُ الله في الخلق أن من تعرَّف على الله في الرخاء عرفه في الشدة، ولذلك كانت أمنية الصالحين قديماً وحديثاً، أنبياء وغير أنبياء، أن يحفظهم الله في الشدة.

● يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾، طمع فقط في رحمة الله ونسي رسالته ونسي الصالحات التي قدّم وعدّ نفسه مذنباً فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾. وإبراهيم عاش الرخاء حافظاً لله يوم أعرض الناس عن الله، كان مصلياً متوجهاً موحّداً حنيفاً مسلماً، ولم يكن من المشركين.

الناس يسجدون للأصنام، وهو يسجد لله.

الناس يتعلقون بالأوثان، وهو يتعلّق بالله.

الناس يقدّسون الخرافة، وهو يقدّس ربه.

فأوقدوا له النار بعد أن دخل على النُّمرود الكذَّاب الدجَّال على الله.

يقول الله جلَّت قدرته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾، ألم تر إلى من ضيَّع حدود الله؟

ألم تر إلى من انتهك حُرُمات الله؟

ألم تر إلى من كفر بالله؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، الخالق هو الله، وهو الرازق والمدبِّر.

قل للطبيب تخطفته يد الرَّدى   من يا طبيب بطبِّه أرداك
قل للمريض نجا وعوفي بعدما   عجزت فنون الطب من عافاك
والنحل قل للنحل يا طير البوادي   من الذي بالشهد قد حلاّك
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه   فاسأله من ذا بالسموم حشاك
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا   وهذا السم يملأ فاك
فالحمد لله العظيم لذاته   حمداً وليس لواحد إلاّك

قال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، لا يحيي ولا يميت إلاّ الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلاّ الله، ولا يعلم ما تكسب نفس غداً إلا الله، ولا يعلم بأي أرض تموت إلاّ الله.

قال الكذاب: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

قال: كيف؟

فأخرج محبوسين فأعتق واحداً وقال: هذا أحييته، وقتل واحداً وقال: هذا أمتّه.

فسلّم له إبراهيم جدلاً وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

جمعوا لإبراهيم بعدها ناراً وأوقدوا الحطب، وأشعلوا النار

ووضعوه في المنجنيق وأطلقوه ليهوي في النار، لا صاحب ولا صديق ولا ركن ولا ناصر إلاّ الله.

فالزم يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

قال بعض أهل العلم: أتى جبريل عليه السلام إلى إبراهيم وقال: ألك إليّ حاجة؟

قال: أمّا إليك فلا، وأمّا إلى الله فنعم[1]، ثم قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

قال ابن عباس في صحيح البخاري: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم لما أُلقي في النار فنجّاه الله، وقالها محمد ﷺ لما قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

فهل قال شبابنا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، لما أتتهم الهموم والغموم، ولما رأوا المعاصي والفتن والحوادث؟ وهل قالته الفتيات والنساء؟

لينقلب الجميع بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

فوقع إبراهيم في النار فأصبحت برداً وسلاماً بفضل الله، لأنه حقّق **«تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/١٩٣).

● ولد موسى عليه السلام في زمن كان فيه فرعون يقتل الأبناء، فأين تخفيه أمه؟

فانقطعت بها الحبال إلاّ حبل الله، فأخذت ابنها ووضعته في تابوت ثم ألقته في اليم تنفيذاً لأمر الله سبحانه، ثم فزعت لفراقه وحزنت فاستأنست لما ربط الله على قلبها.

ولكن أين يذهب موسى هذا الطفل الصغير الذي لا يعرف أن يأكل أو يشرب أو يتكلم أو أن يدافع عن نفسه؟

لقد ذهب إلى بستان رجل من الناس، وترك البساتين حول نهر النيل، وذهب إلى بستان الطاغية فرعون!!

فتأخذه الجواري فيضَعْنَه بين يدي الطاغية المجرم، فأراد قتله فمنعته آسيا زوجته المؤمنة الصادقة التي تعرَّفت على الله في الرخاء فعرفها في الشدة.

يقول أهل العلم: عذَّبها فرعون يوم طلبها أن تشهد أنه الله الذي لا إلٰه إلاّ هو، فكفرت به وقالت لا إلٰه إلاّ الله.

فسمّر يديها في الأرض فما وجدت ألماً.

فوضعها في الشمس فأتت الملائكة تظلها بأجنحتها.

يا حافظ الآمال أنت منعتني ونصرتني
وعَدَا الظلوم عليّ كي يجتاحني فمنعتني
فانقاد لي متخشعاً لما رآك نصرتني

فلما رأت موسى أحبته، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، قال أهل العلم: ما رآك أحد إلا أحبك.

قالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، اترك الطفل لعله أن يكون ولداً لنا (لأنهما عقيمان).

فقال: قرة عين لك أنت، أما أنا فلا.

قال أهل العلم: والله لو قال فرعون: قرَّة عين لي لأقرَّ الله عينه بموسى.

وعاش موسى والله يحفظه لأنه كان من المخلِصين محققاً لقوله: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

ودارت الأيام وقتل رجلاً وفرّ هارباً لا يملك شيئاً، جائعاً مريضاً غريباً.

ولذلك أورد أهل السير أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مَدْين وسقى للجاريتين عاد إلى الظلّ ورفع يديه وبكى وقال: يا رب أنا مريض، يا رب أنا غريب، يا رب أنا جائع، يا رب أنا فقير.

فأوحى الله إليه: يا موسى المريض من لم أكن أنا طبيبه، والجائع من لم أكن أنا مشبعه، والغريب من لم أكن أنا مؤنسه، والفقير من لم أكن أنا مُغنيه.

وهو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

وعاش وتزوَّج ابنة الرجل الصالح بعد أن أتته تدعوه لأبيها فقال: تعالي ورائي ودليني على الطريق.

سبحان الله! يا للحياء! يا للروعة! يا لمراقبة الله!

فهل تصوَّر شبابنا هذا الموقف، موقف موسى والجارية التي أتت تدعوه، ثم هو يكون أميناً معها وحافظاً لعهد الله.

وهل علم بعض شبابنا هذا المبدأ وهم الذين أطلقوا نظرهم إلى الحرام، ونظروا إلى الأجنبيات، وانتهكوا الحرمات، وأغضبوا رب الأرض والسماوات، وأكثروا في الخطيئات.

فأرسل الله موسى رسولاً إلى فرعون الطاغية، سبحان الله!

هو يفر من الطاغية والله يريد أن يجعله يواجهه في موقف رسالة وفي موقف تحدي.. فخاف موسى.

ولكن لأنه تعرّف على الله في الرخاء فقد عرفه في الشدة، فقال له ولأخيه: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

وبعد أن تلاقى عليه السلام بالسَّحَرة في مشهد رهيب مكشوف أمام الناس أوجس في نفسه خيفة من سِحرهم فقال له تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فنصره الله وحفظه من كيدهم لأنه تعرّف عليه في الرخاء.

فهرب من فرعون فطارده الطاغية بجنود كالجبال إلى أن وصل موسى وقومه البحر، فخاف قومه أن يدركهم فرعون وجنوده فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لأنه علم أن الله سينقذه هنا كما أنقذه سابقاً بشرط أنه تعرّف عليه في الرخاء فعرفه في الشدة.

فأنقذه الله كما هو معلوم وأغرق عدوّه.

● أما يونس بن متى فإنه خرج مُغاضباً لقومه، فلما ركب في السفينة كما تعلمون جاءها ريح عاصف يقلبها ذات اليمين وذات الشمال إلى أن رمَوه في البحر بأن استهموا فيما بينهم، أي اقترعوا.

فأصبح في ظلمة البحر، وظلمة الليل، ثم اكتملت الظلمة بابتلاع الحوت له، فأصبح في ظلمات ثلاث.

إلى من يلجأ؟ إلى من يشتكي؟

فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فأنقذه الله من الكرب والهم والشدة، لأنه كان قد عرفه في الرخاء، قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾.

● ويوسفِ عليه السلام لما رماه إخوته في البئر أصبح يُسَبّحْ وهو طفل صغير.

قال بعض المفسرين: هدأت الضفادع والحيتان من التسبيح إلا يوسف عليه السلام فأنقذه الله.

فلما ذهب إلى مصر حدثت له الفتنة مع زوجة العزيز.

فهل وقع فيها؟

لا.. حاشاه ذلك، قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، لقد عرف الله في الرخاء فعرفه وقت الفتنة والشدة.

فيا من نظر إلى الحرام؟ ويا من هَتَكَ الأعراض.. هل قلت وقت الفتن كما قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

إن قلتها فهنيئاً لك وطوبى بفضل من الله ورضوان.

هؤلاء الأنبياء وغيرهم كثير كثير عرفوا الله في الرخاء فعرفهم في الشدة، وهذه سنّة الله لا تتغير ولا تتبدل أبداً، أنَّ من عرفه في الرخاء عرفه في الشدة.

● الذين لم يعرفوا الله في الرخاء:

أما الفريق الذي خالف هؤلاء فهم لم يتعرّفوا على الله وقت الرخاء فلم يكن نصيراً لهم وقت الشدة.

● ترجم ابن كثير للبرامكة بشيء عجيب ونبأ غريب.

البرامكة أسرة أعجمية فوّضها الخليفة هارون الرشيد في الأموال والديار، فبنوا القصور وبنوا الحدائق وكانوا يموّهون قصورهم بماء الذهب وماء الفضة.

أي بذخ هذا؟ أي ثراء هذا؟

فنسوا الله وتركوا الصلوات، وارتكبوا الشهوات، وأكثروا من السيئات، وأكثروا من الفواحش، فأمهلهم الله عز وجل ثم سلّط عليهم أقرب الناس إليهم هارون الرشيد.

وثقوا بهارون الرشيد ووثق بهم، أحبوه وأحبهم، لكن كما أتى في الحديث: «**من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أسخط الناس برضى الله رضي الله عنه وأرضى عليه الناس**»(١).

فغضب عليهم هارون الرشيد غضبة، لأنهم ما عرفوا الله في الرخاء فلم يعرفهم في الشدة، فأخذ كبيرهم الذي علّمهم المعصية يحيى بن خالد البرمكي فأنزله في السجن سبع سنوات حتى طالت لحيته وأظفاره وشعر حاجبيه وطال شاربه وطال كل شيء فيه، حتى أصبح يقول: لا أنا في الدنيا ولا أنا في الآخرة.

ما رأى الشمس سبع سنوات.

قال له بعض الناس لما دخلوا يزورونه: ما لك؟

قال: ما عرفت الله في الرخاء فلم يعرفني في الشدة. وقال في رواية عنه: أتدرون بماذا أصابنا الله بهذه المصيبة؟

قالوا: لا ندري.

قال: دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها ولم يغفل الله عنها.

فيا من تمهل في الرخاء.

---

(١) رواه ابن حبان (١٥٤١).

ويا من قاطع المساجد والصلوات الخمس.

اعلم أن الحفظ في الرخاء معناه الحفظ في الشدة.

يقول ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث جندب بن عبدالله البجلي: «**من صلَّى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله، فالله لا يطلبنَّكم الله مِنْ ذمته في شيء، فإنه من طلبه أدركه، ومن أدركه كَبّه على وجهه في النار**».

كيف يحفظ الله، كيف يرعى حدود الله، كيف يتعرَّف على الله في الرخاء من لم يصلِّ الصلوات الخمس، أو من أخّرها عن أوقاتها، أو من أسرف في تضييعها أو التلاعب بها؟

● أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي: هو أحمد أهل البدعة، وأحمدنا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة.

كان كريماً في المال ينفق في المجلس الواحد مائة ألف دينار، وأنفق مرة من المرات يوماً واحداً ألف ألف درهم، لكن ضيّع الله وضيّع حدود الله، يقصد بالمال الرياء والسمعة، يقول فيه أبو تمام:

لقد أنست محاسن كل حسن   محاسن أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرتُ في الآفاق إلا   ومن جدواه راحلتي وزادي

حقد على الإمام أحمد وأغرى الخليفة المعتصم بجلد الإمام أحمد، فدعا عليه الإمام أحمد.. والإمام أحمد يعرف الله في الرخاء فعرفه الله في الشدة.

وأحمد بن أبي دؤاد ضيَّع الله في الرخاء فضيَّعه الله في الشدة.

فقال الإمام أحمد: اللهمّ احبسه في جلده، اللهم عذِّبه قبل موته.

فاستجاب الله للإمام أحمد فأصاب أحمد بن أبي دؤاد الفالجُ.

فزاره بعض الناس من تلاميذ الإمام أحمد وقالوا: والله ما زرناك لنعودك، ولكن زرناك شامتين، الحمد لله الذي عذَّبك في جسمك، الحمد لله الذي حبسك في أعضائك، فكيف تجد حالك؟

قال: فأما نصفي هذا لو وقع عليه الذباب لكأن القيامة قامت، وأما النصف الآخر فلو قُرض بالمقاريض لما أحسست به.

ثم مات.

● أحد الخلفاء العباسيين ذكره السيوطي والذهبي وغيرهم تولى الخلافة فنسي الله.

أخذ حربة فكان يحمِّيها بالنار ويقول: والله لأقتلنّ بها رجلاً.

وحفر حُفَراً (خوانات) وملأها ذهباً وفضة.

قالوا: ما لك؟

قال: أخشى الفقر.

سبحان الله! يخشى الفقر والغني في السماء.

يخشى الفقر والرازق في السماء ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فماذا كانت النتيجة؟

أتى الخليفة الذي من بعده فسلبه الخلافة واقتاده وأخذ خزائنه وأخذ ذهبه وفضته، فأحمى حربته وأذهب عينيه الاثنتين حتى أصبح أعمى، فقام في مسجد بغداد مسجد دار السلام ـ كما يقول السيوطي والذهبي ـ يمد يديه ويقول: من مال الله يا عباد الله!!

لماذا؟

لأنه ما عرف الله في الرخاء، فلم يعرفه في الشدة.

ومن هذا المنطلق يا عباد الله ينبغي لنا أن نقف طويلاً عند

قوله ﷺ: **«تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**، تعرَّف عليه وقت الصحة أن تصرفها في مرضات المولى سبحانه وتعالى.

وتعرّف عليه في وقت الفراغ أن تصرفه في ما ينفعك من قرآن وعلم واجتهاد وعبادة وعمل صالح، بدلاً من تضييعه في ما لا يجدي، أو ما يجر عليك ويلات في المستقبل، وليحفظك الله كما حفظت أوقاتك.

يا عباد الله! يا مسلمون.. يا صائمون.. يا مصلُّون.. يا أبناء الذين تعرَّفوا على الله في الرخاء فعرفهم في الشدة، أما آن لنا أن نعرف الله فيعرفنا؟

إنها وصية المصطفى ﷺ، وإنه درس خالد نوجهه إلى أنفسنا ثم لإخواننا من كل مسلم ومسلمة لعلَّهُمْ أن يرعوا حدود الله ويحترموا حرمات الله ويعظموا شعائر الله ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

إذن وصيته ﷺ بل من أعظم وصاياه: **«تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**.

والله لقد أدرك أهل المال أن لا لذة لهم ولا سعادة إلا في تقوى الله، والله لقد سكنوا القصور وعمروا الدور وركبوا السيارات الفاخرة لكن لما ضيَّعوا الله ضاعوا ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

ألا إنها وصيته ﷺ وإنها دعوته ﷺ: **«تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**.

ونحن يا شباب الإسلام، ويا حَمَلَة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، نعيش في رخاء، إي والله رخاء يتمثل في الأمن والاستقرار وبرد العيش وفي السكينة والغنى.

فنعوذ بالله أن نغير نعمة الله كفراً وأن لا نشكر معروف الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾.

ألم تر إلى الذين هجروا بيوت الله، وهجروا كتاب الله، وهجروا شعائر الله، وعملوا ما يغضب الله وما يسخط الله؟

ألم تر ما فعلوا بأنفسهم؟ ألم تر كيف يلعبون بالنار، وكيف يسعون إلى الدمار، وكيف لا يخشون الواحد القهار؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

سكنوا وارتاحوا، وأكلوا وشربوا، لكن انتهكوا المحرمات وأكثروا من السيئات، فغضب عليهم رب الأرض والسماوات فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

سبحان من يعفو ونهفو دائماً ... ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يعطي الذي يخطي ولا يمنعه ... جلاله عن العطا لذي الخطا

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❀ ❀ ❀

نفائس الأوقات

الحمد لله رب العالمين ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسَلين، وإمام المتقين، وقدوة الناس أجمعين، وحجة الله على الهالكين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد..

الدقائق الغالية هي حياة المسلم.

فكل دقيقة تمر من حياة المسلم ومن عمره تُحتسب عليه عند الله عز وجل.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ قال أهل العلم في النذير: هو الموت.

وقالوا: هو محمد ﷺ.

وقالوا: القرآن.

وقالوا: الإسلام.

وقالوا: الشيب.

وذُكر عن بعض السلف أنه قال: من بلّغه الله ثمان عشرة سنة فقد أعذر إليه وأنذر.

وفي صحيح البخاري: «**من بلّغه الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه**» أو كما قال ﷺ.

فإذا تفكر المسلم أنه قد جاءته من الله نِذارة وإعذار وجب عليه أن يستغل هذه الدقائق في مرضاة الله الواحد الأحد.

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

أما معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ فالمعنى ألم نمهلكم؟

ألم نمد لكم في الأجل؟

أما تركناكم تعيشون حتى جاءتكم النذارة؟

أما تركنا لكم مُهلة؟

ولذلك قال بعض أهل العلم: الشيب هو النذير.

ومن شابت لحيته أو شاب رأسه فقد أتاه من الله نذير.

قال سفيان بن سعيد الثوري: من شاب فليشترِ كفناً وليعدّ للقبر عدته.

ولقد بكى العلماء والصالحون الشيب وعلموا أنه داعي القبر وأنه بريد الموت وأنه سائقٌ إلى الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام أحمد: والله ما مثلت الشباب إلا بشيء كان في يدي ثم سقط من يدي.

وقال أبو العتاهية:

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

يقول: يا ليت الشباب أول العمر يعود إليّ فأخبره بما فعل بي المشيب، فقد غيّر لوني وغيّر مهجتي وحطّم قوتي وأذاب سكونه شعري واحدودب ظهري وأسهرني وأبكاني.

ولذلك نام شباب مع شيخ كبير في بيته وكان قد بلغ الثمانين من عمره.

فما نام طول الليل فهو دائماً في أنين وزفير وفي شهيق حتى صلاة الفجر.

فقال له الشباب لما صلى الفجر؟ ما تركتنا نام البارحة.

فعمل قصيدة يقول فيها:

قالوا أنينك طول الليل يزعجنا فما الذي تشتكي قلت الثمانينا

قال ابن قتيبة: مرَّ شيخ كبير من بني غفار عليه لحية بيضاء وعلى صدره، والعرب كان فاجرهم ومؤمنهم قويهم وضعيفهم لا يحلقون لحاهم.

فمرَّ على شباب يلعبون في الشارع، فقال أحد الأطفال: يا عم من الذي باعك هذا القوس؟

فدمعت عينا الشيخ وقال: يا بني هذه اللحية أعطانيها الدهر بلا ثمن، وسوف يعطيك شيباً مثلها.

يعني اصبر وسوف تجد مثلها.

ولكن قال الصالحون: من حفظ الله في الشباب حفظه في الهرم.

ولذلك قال ﷺ فيما صحَّ عنه: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت**

فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجَفّت الصحف»[1].

وفي حديث عند الترمذي بسند حسن: «**اغتنم خمساً قبل خمس**» ثم ذكر منها ﷺ «**شبابك قبل هرمك**».

قال ابن كثير وهو يترجم للمُحِبِّ الطبري الإمام الشافعي الكبير.

يقول: ركب معه شباب في سفينة فلما اقترب من الشاطىء قفز من السفينة إلى الشاطىء فحاول الشباب أن يقفزوا فما استطاعوا فقالوا له: ما لك وأنت في الثمانين استطعت ونحن شباب لم نستطع؟

قال: هذه أعضاء حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر.

وذكر أهل العلم في كتب الحديث وغيرها أبواب الشيب وعدوه من الإنذارات للمؤمن قبل أن يأتيه نذير الموت.

ولذلك قال أهل السير: وقف عابد من بني إسرائيل أمام المرآة وكان عمره ثمانين سنة فرأى شيبة.

وكان هذا الرجل قد أطاع الله أربعين سنة ثم عصاه أربعين سنة، نعوذ بالله من الخذلان.

لأن بعض الناس بعد أن يستمر في طريق الهداية يتراجع في اللحظات الأخيرة.

فنظر إلى المرآة وقال: يا رب أطعتك أربعين سنة وعصيتك أربعين سنة، فهل تقبلني إذا عدت إليك؟

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح.

فسمع هاتفاً يقول: أطعتنا فقربناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإذا عدت إلينا قبلناك.

لأن بعض الناس كما قلت يدركهم الخذلان فيعود للمعصية بعد الطاعة.

يذكر الذهبي في ترجمة عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي أنه لما تولى الخلافة كان عالماً من العلماء، بل كانوا يعدونه من علماء المدينة.

فلما تولى الخلافة سفك الدم وسلَّ السيف.

يقولون أنه أول ما بويع بالخلافة أخذ المصحف، ثم نشره أمامه ثم قرأ فيه قليلاً ثم طبقه وقال: هذا آخر العهد بك!

قال الذهبي معلقاً: اللهم لا تمكر بنا.

فأدركه الخِذلان والعياذ بالله لما مكَّنه الله في الأرض.

ولذلك لما أتته سكرات الموت بكى طويلاً ونزل من على سرير الملك فمرغ وجهه في التراب وبكى وقال: يا ليت أمي لم تلدني، يا ليتني ما عرفت الحياة، يا ليتني ما توليت الخلافة.

فسمع غسالاً وهو في سكرات الموت.

وكان الغسال يغسل الملابس، ولا يحمل هموم الأمة، ولا يخاف من الظلم ولا الإجحاف.

فقال عبدالملك: يا ليتني ما عرفت الحياة، يا ليتني كنت غسَّالاً.

قال سعيد بن المسيب أحد علماء التابعين لما سمع الكلام: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا وقت الممات ولا نفر إليهم.

وإنما يتذكر قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، من عقل وفهم عن الله عز وجل.

أما الذي غلبه هواه، فهذا لا يسمع الآيات ولا يستفيد من المواعظ، ولو أسمعته خطب الدنيا ومواعظ الدنيا ومحاضرات الدنيا فلن يستفيق أبداً.

وبالمناسبة فالنساء أشد ما يغضبهن في الرجل هو: الشيب.

فالمرأة تصاحبك حتى ترى الشيب فكأنها رأت ثعباناً عليك!

يقول حسان بن ثابت:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي فأعرضن عني بالخدود النواضر

فالشيب هذا عدو للنساء.

ولذلك أخذ بعض الناس السواد وصبغوا لحاهم ورؤوسهم.

وهذا على الصحيح من أقوال أهل العلم أنه محرم لقوله ﷺ فيما صحَّ عنه في أبي قحافة: «**وجنِّبوه السواد**»[(١)]، والسر في ذلك كما قال بعض الفقهاء: أنه يوهم الناظر، وأن فيه تدليس.

ولكن الصبغ يجوز بالورس والحناء والكتم.

هذا على سبيل الاستطراد.

قال بعض الصالحين لما حضرته الوفاة: اللهم ارحم شيبتي، فإني سمعت في الحديث أن الرسول ﷺ يقول: «**إن الله يستحي أن يعذِّب شيخاً في الإسلام**».

وذكر الذهبي في ترجمة يحيى بن أكثم أحد العلماء القضاة وقد تولى القضاء للمأمون لكنه ما حُمد كثيراً في القضاء، فسياسته في القضاء ما كانت محمودة إنما كان محدثاً صالحاً فيه خير.

فلما توفي رؤي في المنام قالوا: ما فعل الله بك؟

---

(١) رواه مسلم.

قال: والذي نفسي بيده لقد أوقفني بين يديه تبارك وتعالى ثم قال الله: وعزتي وجلالي لولا شيبتك لعذبتك بالنار، ثم أدخلني الجنة.

وهذا لا يعني أن الشيخ الكبير له أن يفعل ما شاء لأن الله يستحي من شيبته، لا.

بل معناه أن الله يستحي منه إذا استحى من الله.

وإلا ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»[1]، منهم: «**أشيمط زانٍ**»، أي شيخ كبير في السن ويزني.

فهذا ليس له عند الله قَبول، ولا يكلمه الله يوم العرض الأكبر، ولا ينظر إليه ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

ونظر إبراهيم عليه السلام في المرآة فرأى شيبة بيضاء فقال: يا ربي ما هذا البياض؟

قال: هذا وقار يا إبراهيم.

قال: اللهم زدني وقاراً.

وقالوا عن الإمام أحمد أنه كان لا يقوم لأحد من الناس لا لملك ولا لوزير ولا لسلطان ولا لغني ولا لوجيه، إلا إذا رأى شيخاً كبيراً شابت لحيته، فإنه يقوم فيقبله ويعانقه ويجلسه بجانبه.

وفي الحديث: «**إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم**»[2].

وثلاثة يوقَّرون: السلطان المقسط أي العادل، وحامل القرآن أي طالب العلم العامل بعلمه، والشيخ الكبير.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود وحسنه الألباني في المشكاة (٤٩٧٢).

هؤلاء يوقرون لما أعطاهم الله عز وجل.

ومقصودي من هذا أيها الأحبة أن نصل إلى مسألة حفظ العمر مع الله عز وجل، فإن كثيراً من الناس ذهبت لياليهم من بين أيديهم سدى فلم يستغلوها في الطاعة فبكوا وندموا.

يقول سبحانه وتعالى عن المفرطين: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قال أهل العلم: يقولون يا ويلتنا على ما ضيعنا في حياتنا من الأوقات الثمينة.

دخل عمر رضي الله عنه وأرضاه المسجد فوجد رجلاً حزيناً جالساً في المسجد فقال: ما لك؟

قال: فاتتني صلاة الليل البارحة.

أما نحن، فالكثير تفوته صلاة الفجر وقلبه بارد لا حزن فيه ولا غضب، ولا هم ولا خوف، فهو كما قال المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميِّت إيلام

قال عمر: سبحان الله، قم فصلِّ، أما سمعت الله يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

فمن فاته ورده في الليل وقراءة القرآن فليعوِّضه في النهار.

ومن فاته في النهار.. فليعوِّضه في الليل.

الجنيد بن محمد أحد الصالحين كان يُسبِّح ثلاثين ألف تسبيحة. ذكرها أهل العلم في ترجمته، فلما حضرته الوفاة أخذ يقرأ القرآن وهو في سكرات الموت، فقال له أبناؤه: تقرأ القرآن وأنت مشغول بالموت؟

قال: وهل هناك في الدنيا من هو أحوج مني إلى العمل الصالح؟

فيا إخوتي في الله، إن الدقائق الغالية في حياة المسلم لا تُقَدّر بثمن.

وقد ذكر أهل العلم في حفظ الوقت نماذج أذكر شيئاً منها.

كان كرز بن وبرة أحد الصالحين يقرأ القرآن أربع مرات في اليوم كما يقول النووي والعُهدة عليه رحمه الله.

وهذا يمكن، ولكن ليس هو السنة، فلا يفقه من يختم القرآن في أقل من ثلاثة أيام، لكن أذكره من باب الجد والمثابرة.

وكان يقول له أصحابه: اجلس معنا نتحدَّث معك.

قال: احبسوا الشمس.

قال الحسن البصري: والذي نفسي بيده، ما أصبح صباح إلا نادى: يا ابن آدم اغتنمني، فوالله لا أعود لك إلى يوم القيامة.

قال الجاحظ في كتاب (الحيوان): وأحسن ما أنشد العرب في حفظ الوقت:

أَشابَ الصغير وأفنى الكبير ... كرُّ الغداة ومرُّ العَشِي
إذا ليلة هرمت يومها ... أتى بعد ذلك يوم فتي
نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجة ما بقي

ويصدق هذا الكلام قوله ﷺ في الصحيح: «**يؤتى بأنعم أهل الأرض** ـ أي ممن يستحق النار ـ **فيغمسه الله في النار غمسة ثم يقول: هل رأيت نعيماً قط؟**.

قال: لا والله يا رب ما مرَّ بي نعيم قط».

ذهبت الفلل والقصور، وذهب النعيم، وبقيت المعصية تلاحقه حتى أدخلته النار.

«**ويؤتى بأتعس أهل الدنيا**» هذا الرجل الضائع الذي ينام في الخيمة ولا يجد إلا كسرة الخبز، ولا يجد إلا جرعة الماء، «**فيغمسه الله غمسة في النعيم ثم يقول الله له: هل مر بك بؤس قط؟**

قال: لا والله يا رب ما مرَّ بي بؤس قط»[1]، وهذه هي الحياة.

ولذلك: سل مَنْ تنعَّم وهو في الحياة الآن، هل تتذكر النعيم السابق الذي مرّ بك؟

سيقول: لا.

لأنه لا يبقى إلا طاعة الله الواحد الأحد.

ولذلك تواصى بها الصالحون قديماً وحديثاً.

قال سليمان عليه السلام: تعلَّمنا ما تعلَّم الناس ومما لم يتعلَّموا، فما وجدنا كتقوى الله.

وقال عون بن عبدالله لزملائه وهو يودعهم: أوصيكم بوصية: عليكم بتقوى الله، فإن المتقي لا وحشة عليه.

ولذلك قليل العمل الصالح يعادل جبالاً من نعيم الدنيا لو كانت في ميزان الحسنات.

فلذلك لما مرّ سليمان عليه السلام ـ كما يُروى ذلك في الأثر ـ وهو راكب على بساط الريح يحمله إلى أين شاء بواسطة الريح التي سُخّرت له كما قال سبحانه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾، أي حيث أمرها تتجه به حسب ذلك الأمر.

---

(١) رواه مسلم.

فمر يوماً من أمام فلاح في مزرعته، فلما رآه الفلاح وهو في أبهته أعجبه المنظر فقال: سبحان الله، لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً.

فسمعها سليمان عليه السلام فأمر بالنزول عنده، فلما قابله قال: والذي نفسي بيده لقولك: سبحان الله، خير مما أوتي آل داود.

ويؤيد ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»، وفي لفظ في غير الصحيح: «**أو غربت**».

ولذلك قال الله عز وجل عن إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

يقولون: كان خياطاً وكان بين أن يدخل الإبرة ويخرجها يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم يُخْرج الإبرة.

فأوحى الله إليه: يا إدريس، وعزتي وجلالي لأرفعنك مكاناً علياً.

قال: يا رب لماذا وأنا مذنب؟ يعني معترف بالتقصير.

قال: إنه يُرفع عملك مع عمل أهل الدنيا فتفوقهم بالتسبيح والتهليل.

وهذا تسديد من الله أن تجد العبد دائماً يسبِّح ويهلِّل.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: كان خالد بن معدان يُسبِّح في اليوم مائة ألف تسبيحة.

وهذا توفيق من الله عز وجل.

تجد بعض الناس دائماً يتمتم بالتسبيح حتى يقول له المنافقون: هذا موسوس!

وفي حديث ضعيف ضعّفه الشوكاني والأئمة: «**اذكر الله حتى يقول الناس إنك مجنون**»[1].

كان أحد الصالحين يُسبِّح.

فقال له أحد الشباب: يا موسوَس.

فقال في قصيدة:

ومن هُيامي بكم قالوا به مرض فقلت لا زال عندي ذلك المرض

يقول: من ذكري لك يا رب يقول الناس إن بي مرضاً، فقلت: لا زال بي هذا المرض.

وقال ابن القيم في بيت جميل:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس

ولذلك تجد الصالحين دائماً يتمتمون بالذكر.

قال النووي: من راقب الناس ـ أي خاف من كلامهم ـ في هذه الأمور فاته أجر عظيم.

لكن الواجب أن تخلص العمل لله ثم لا يهمك قولهم ولا تعليقاتهم، بل اذكر الله كثيراً كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

أسأل الله لي ولكم أن يجعلنا نستثمر أوقاتنا ودقائقنا الغالية في طاعته ومرضاته.

والله أعلم، وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٣/٦٨)، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٥١٧).

مثل الدنيا

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد..

يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الرقاق (باب) مثل الدنيا في الآخرة وقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾.

ثم أخرج عن سهل بن سعد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها»**.

في هذا الحديث مسائل:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾.

أما اللهو فكأنه خاص بالقلوب فهي تلهى.

واللعب خاص بالجوارح.

ومثل الدنيا كما يقول بعض أهل العلم: كمثل صبيان أتوا في يوم من الأيام يلعبون، فبنوا لهم قصوراً وعَمّروا دوراً وزرعوا شجراً، فلما غربت عليهم الشمس خرّبوها، وهذا كمثل الدنيا.

قال عَزَّ من قائل: ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

قال أهل التفسير: هذا المثل مثل أرض مربعة نزل عليها الغيث فأنبتت من كل زوج بهيج، فأنبتت الورود وأنبتت الأشجار وتدلت الأغصان اليانعة، فأعجب هذا المنظر الزرَّاع.

فلما مضت عليها أشهر، هبت عليها الريح وأذبلتها الشمس، فتكسرت عيدانها وذبلت ورودها وذهبت بهجتها، ففنيت وأصبحت قاعاً صفصفاً، فهذا مثل الدنيا.

بينما تمر بالإنسان وهو في صحة وعافية وأولاده مجتمعون عنده وهو مُصَدَّر ووجيه في الناس وماله موفور وبدنه قوي.

ثم تلقاه بعد حين وإذا هو مريض أو قد مات، وقد تخرَّمت الأيام صحته وعافيته وقد أصبح في حالة بئيسة.

قال ابن القيم في زاد المعاد: أتت امرأة من آل النعمان بن المنذر وكانوا في صحة وأموال عظيمة حيث أنهم كانوا من ملوك العرب.

فقال لها رجل من العرب: يا فلانة ماذا فُعِل بكم؟

فقالت: أصبحنا وما في العرب بيت أغنى منا، ثم أمسينا وما في العرب بيت أفقر منا.

لقد سُلِب ملكهم في ليلة.

ولذلك مرَّ ابن مسعود بقصر في الكوفة وقد التمعت أنواره وكان فيه حفل وفيه مظاهر البهجة بادية، فقال: ما هذا؟

قالوا: أُناس قد اجتمعوا عند أبيهم على زواج وعُرس، فأحبوا أن يحتفلوا.

قال: ما امتلأت دار حَبرة إلا امتلأت عَبْرة.

يعني: ما امتلأت دار بالبهجة والسرور والفرح، إلا امتلأت عما قليل بالنكد والهم والغم والحزن.

فإذا أصابتك مصيبة فاعلم بأنها قد وقعت على غيرك من الناس ودخلت كافة البيوت.

وكل هذه المصائب توصل العبد إلى الموت، والموت سهل لا بد أن يُقدم عليه، لكن المصيبة الكبرى التي توصل العبد إلى جهنم أن يُحجب القلب عن الله عز وجل وأن يُطبع على القلب فلا يعي ولا يفهم ولا يعقل.

فهذه هي أعظم المصائب، فلا مصيبة بعدها.

ولذلك هَوّن على نفسك إذا أُصبت بمصيبة دنيوية لا دينية.

يقول الأندلسي في الدنيا:

إذا هدمت فزدها أنت هدماً   وحَصّن أمر دينك ما استطعت

يقول ابن القيم: إن مَرَضَ الجسم سهل وبسيط ومآله إلى الموت، وأما مرض القلب فمآله إلى جهنم نعوذ بالله من جهنم.

فالله ما ذكر مرض الجسم في القرآن الكريم إلا في معرض الأعذار والرخص.

أما مرض القلب، فذكره الله في معرض العقيدة والتحدث عن الآيات وعن الكفر والنفاق، نعوذ بالله من ذلك.

يقول الله عن أصحاب المرض القلبي: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، بينما أجسامهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، وإذا هم مرضى قلوب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

وهذا جلب للانتباه فهو يقول: ﴿اعْلَمُوا﴾ إن كنتم تعلمون، واعقلوا إن كنتم تعقلون، وتفكروا إن كنتم تتفكرون.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وهذا للحصر، واللعب في الجوارح واللهو في القلب.

﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾ قال أهل التفسير: تفاخر وتكاثر بالمطاولة والمنافسة.

ولذلك فأهل الدنيا إذا أراد بعضهم أن يغيظ بعض تطاول عليه في البناء أو في المال أو في المظهر.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال أهل العلم: من أعجبه ماله أو كثر عليه ماله وألهاه من طاعة الله فليتدبّر قصة قارون، فإن الله أهلكه وقطع دابره، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ما النتيجة؟ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

وهكذا من تفاخر بأولاده وتباهى بهم في المناسبات عند أقاربه وأصحابه كما كان يفعل الوليد بن المغيرة في الجاهلية، حيث كان له مجموعة من الأولاد حوالي عشرة، وكان يتباهى بهم في نوادي قريش

ومنتدياتها، حيث كانوا يشهدونها معه، فلذلك قال تعالى عنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾.

أي يشهدون معه المناسبات.

ولكن ذلك لم ينفعه عند الله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾. قال ابن كثير: الغيث إنما يُطلق على المطر إذا أتى بعد سَنَة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ لأن الأرض أغيثت به.

﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ من هم الكفَّار؟

الرأي الوجيه أنهم الزرَّاع.

وقيل الكفار هم أهل الكفر، فإنهم أعجب الناس بالدنيا، ولذلك لا تجد الكافر إلا كالحمار لا يعجبه إلا مظهر الدنيا، وهذا موجود في المنافقين وفي الفَسَقَة وفي الكفار، فإنه إذا دخل البلد لا ينظر إلا إلى القصور والمتنزَّهات والمطاعم والمشارب والأسواق والفحش، نعوذ بالله.

ثم قال عزَّ مِن قائل: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ يهيج أي: ييبس ويذبل ويضمحل، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾. فالدنيا مثل هذا النبات عما قليل تصفرّ ثم تتحطم.

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾، عذاب شديد للكفار ومغفرة ورضوان للمؤمنين.

ولذلك قال عزَّ مِن قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال عزَّ من قائل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، لأن بعض الناس قد يسعى لها رياءً وسمعة، ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

وأما قوله ﷺ: «**لَموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها**». فهذا الحديث له سبب وهو أن الرسول ﷺ لما أرسل جيشه إلى مؤته عيّن عليه ثلاثة قواد وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وابن رواحة.

فقال ﷺ: «**إذا قُتل زيد فجعفر، فإذا قُتل جعفر فابن رواحة**»(١).

فتخلّف ابن رواحة لما خرجوا في الصباح.

فلما صلّى الرسول ﷺ الجمعة سلّم عليه ابن رواحة.

فقال ﷺ: «**أما خرجت مع أصحابك في سبيل الله**»؟

قال: يا رسول الله تخلّفت لأرى وجهك على المنبر ليكون آخر العهد بك، وبقيت لأودعك.

فدمعت عيناه ﷺ ودمعت عينا ابن رواحة.

حتى كان يقول:

خلف السلام على امرىء ودعته ... في النخل خير مودع وخليل

يقول: بقي السلام على محمد ﷺ في النخل في المدينة.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٧٩/٢).

فقال ﷺ: «**لغدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**».

أما الذي أعدَّه الله في الجنة للصالحين فهذا لا يستطاع أن يتكلم عنه، ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

وأما الحقيقة فليس من الجنة شيء في الدنيا.

وقد ذكرت طرفاً من أخبارها في رسائل أخرى من هذا المجموع.

قال رسول الله ﷺ: «**هل من مشمِّر للجنة، فإنها والذي نفسي بيده قصر أبيض ونور يطرد وماء ينسكب وزهرة بيضاء**»، أو كما قال ﷺ.

فقال الصحابة: نحن المشمِّرون.

قال: «**قولوا إن شاء الله**»(١).

أما قوله ﷺ: «**لغدوة في سبيل الله**» أي لغزوة أو قتال ساعة في سبيل الله.

ويرى بعض أهل العلم أن من غدا إلى المسجد فهو في سبيل الله، ومن راح من المسجد فهو في سبيل الله، ومن جهّز غازياً فهو في سبيل الله، ومن قال كلمة تنفع المجاهدين فهو في سبيل الله.

فمن لم يستطع أن يجاهد بنفسه فليجاهد بماله، فمن لم يستطع بماله فليجاهد بلسانه، فيمدح الجهاد وينشر مدح الاستشهاد في المجالس ويذم الكفر والكفَرَة والشيوعيين والملاحدة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وضعّفه الألباني في الضعيفة (٣٣٥٨).

ومن لم يستطع بلسانه فلينو بقلبه نية طيبة، وليجاهد نفسه في ذلك.

قيل لابن تيمية وهو يصعد جبلاً في دمشق: ما لك تصعد الجبل وتنزل؟

قال ما معناه: أتخيل أن عدواً يغير علينا فأريد أن أتجهز له.

فهذا هو تحديث النفس بالجهاد.

وقالوا لخالد بن الوليد: ما هي أعظم لذة لك؟

قال: والله إن أعظم لذة عندي هي ليلة بِتُّها في يوم اليرموك، عندما قمت في الليل فإذا جميع الجيش قد نام من كثرة التعب والإعياء، فأيقظت امرأتي وقلت لها: أتريدين ليلة من ليالي الجنة في سبيل الله؟

قالت: نعم.

قلت: قومي لنحرس هذا الجيش.

فقامت فتوضأنا في ليلة شاتية لا يعلم بردها إلا الله، والناس ملتحفون بأغطيتهم، ثم قمت أحرس الجيش فانهلّت السماء علينا بالغيث، فكنت أُلحّف بعض الصحابة بالغطاء وأغطيهم.

فوالله ما أعد ليلة أعظم عندي لذة في الدنيا من تلك الليلة.

هذه بعض لمحات حول معاني هذا الباب الذي عقده البخاري في صحيحه.

أسأل الله لي ولكم الجنة، وأن نرى فيها ما لم نره في الدنيا، وأن نسمع ما لم يطرق مسمعنا إلى الآن، وما لم يخطر على قلب أحدٍ منا.

والله أعلم، وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

يا مُتْعِبَ الجسم

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً...

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

وأشهد أنْ لا إله إلا الله.. وأشهد أنَّ مُحمّداً عبده ورسوله.. بعثه الله بالهدى ودين الحق، فبلَّغ الرِّسالة، وأدّى الأمانة، ونصَحَ الأمَّة، وجاهدَ في الله حَتى أتاهُ اليقين، فصَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

يا مسلمون... يا صادقون... يا صائمون... يا مُصلون، اسمعوا إلى الله تبارك وتعالى وهو يتحدَّث لنا عن قرية... قرية نامت في جَفْن البحر... قرية جاورت البحر ولكنها ما وقَّرت رب البحر، وما عظّمت رب البحر، وما استحت من الله:

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

هذه القرية مسكينة بائسة... هذه القرية هالكة عاصية... قرية جحدت معروف الله... قرية تنكرت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... قرية عطّلت أوامرَ الله كما تفعل بعض القرى... قرية كانت تجاور البحر ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ لكن أسلوب القرآن رائع بديع أخّاذ يأخذ بأوتار النفس.

هذه القرية من قرى بني إسرائيل، اجتمعت عند البحر واجتمع أهلها على المعصية. حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت لحكمة أرادها الله، وعندنا اليوم ليس هناك سمك بل أغلى من السمك، أعراض تُنتهك وعيون تنظر وغناء وخمر وسكر وتخلّف عن الصلاة، فليست المسألة مسألة سمك... المسألة مسألة دين يُسحق بالشاطىء. وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر لا يُقام... وفي كل يوم تُجرح مشاعرها.

القضية أعظم من صيد السمك.. القضية صيد النساء، وصيد فتيات، وصيد أعراض، وهدم بيوت، وجرح مشاعر.

حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت.. ولكن الخبثاء الحقراء الأذلة فجّروا من البحر طرقاً ليوم الأحد حيلة على الواحد الأحد، يضحكون على الله، يستهزؤون بالله، يخادعون الله وهو خادعهم.

فكانت الأسماك تمر يوم السبت، فإذا دخلت إلى الخنادق وإلى الأخاديد سكّروا الماء، ثم صادوها يوم الأحد، فلما فعلوا ذلك انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم شاركهم وقال:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدُ

مثل ما يفعل بعض الماجنين اللاهين، يوم يرى أهل المعاصي كثير فيقول: حط رأسك مع الرؤوس، واجعل نفسك مع هؤلاء، والله

غفور رحيم.. والبلد كله من هذا الصنف.. والناس فعلوا كذا ففعل مثلهم.

وهؤلاء لا يحملون عقلاً ولا وقاراً ولا حياءً من الله: قد ماتت قلوبهم في الحقيقة.. وأصبح الإيمان في قلوبهم متلاشياً.. سخِروا من الله فسخِر الله منهم.

٢ ـ وصنف بارد يعيش لخبزه ولطفله ولحذائه، فهو جالس في البيت يقول للدعاة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

يقول: الناس هَلْكَى، اتركوهم وشأنهم، دع ما لله لله... ودع ما لقيصر لقيصر... ما عليك منهم، الله لا يسألك إلا عن نفسك... وهؤلاء أهل السلبية الذين سوف يحاسبهم الله على ما عطّلوا من أمر بمعروف ونهي عن منكر.

٣ ـ وقامت طائفة ثالثة بيّض الله وجوههم، أهل لا إله إلا الله. أهل الرسالة، أهل الحياة الخالدة الذين نوَّر الله بصائرهم في الدنيا والآخرة، قالوا للعصاة: قفوا... قفوا أيها الضُّلَّال، إن الهلاك سوف يعم.

فماذا كانت النتيجة؟ لقد أرسل الله عليهم عذاباً نكالاً، فمسخهم قردة وخنازير، هؤلاء أهل المعصية... أهل الشاطىء، أهل الانحراف الذين عصوا الله ولا شعروا بوقار الله... والشعور بوقار الله من أسس الإسلام، بل هو من العقيدة الحقَّة.

قال نوح عليه السلام: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

ما لكم لا ترجون للّه وقاراً؟... ما لكم لا تحترمون الله؟..

عند أحمد في كتاب الزهد أن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه.. ليت أبا بكر ينظر إلى واقعنا المعاصر، ليته مرّ ليرى الشاطىء ماذا يحدث فيه من اختلاط ونظرات مسفوكة وأعراض متهتّكة وصلاة مؤخّرة..

يقول أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: يأيها الناس، استحيوا من الله حقَّ الحياء، فوالله الذي لا إله إلا هو، إني لأذهب إلى الخلاء لأقضي حاجتي فأجعل ثوبي على وجهي حياء من الله. رضي الله عنك، اللهم ألحقنا معه في منازل الخالدين.

ألا يستحي هذا العبد الذي خرج بعرضه، وخرج ببنته، وخرج بزوجته وأخته، وخرج بدينه وبشرفه، وخرج بإيمانه بين لاهين لاغين تركوا المساجد والقرآن؟ ماذا يقولون للّه؟ صحَّ عنه ﷺ أنه قال: **«استحيوا من الله حق الحياء، والاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ومن تذكَّر البلى ترك زينة الحياة الدنيا»**[1].

عمر بن الخطاب الخليفة العظيم، الرجل الذي عجز التاريخ أن يأتي بمثله مرة ثانية، قال عنه ابن كثير: أنه سمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾، فألقى عصاه وسقط على الأرض، وحمله الصحابة على أكتافهم إلى البيت وبقي مريضاً شهراً كاملاً. هذا هو الإيمان ومراقبة الواحد الديَّان.

يوم تخلو بالحيطان وتتستَّر بالجدران فتعلم أن الواحد الأحد يراك وتقول لنفسك:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

(١) رواه أحمد والترمذي، وضعّفه الألباني في المشكاة (١٦٠٨).

بكى الربيع بن خثيم حتى كادت أضلاعه تختلف وقال: والله إن شاء الله لا يسألني ربي أنني وقعت بفاحشة أبداً.

وقال البخاري فيما يُروى عنه في الصحيح: منذ بلغت الاحتلام ما كذبت كذبة، ولا اغتبت مسلماً.

تلك النماذج عاشت للّه... وماتت للّه... وذهبت للّه... وأتينا إلى جيل لا يعرفون الله، أكلوا نعم الله، واستنشقوا هواء الله، وشربوا ماءَ الله.. وبارزوا الله بالمعاصي.

أنجى الله الذين ينهون عن السوء، وأما أولئك فهلكوا.. وأما الصنف الثاني فقد اختلف العلماء فيهم وكأنهم إلى الهلاك أقرب.

يا مسلمون! في هذه الرسالة مسائل:

أولها: واجبنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانيها: أدب الدعوة، كيف ندعو الناس وكيف نجلس للناس نعلمهم الإسلام، وكيف نلقِّنهم لا إله إلا الله.

الثالث: الفتن التي عمَّت وطمَّت، حتى يتمنَّى المسلم اليوم أنه يدفن مكان صاحب القبر.

الرابع: حياة اللهو واللعب والعبث التي يعيشها كثير من الناس.

الخامس: عقوبات المعاصي.

السادس: هل من توبة يا مسلمون؟

السابع: كلمة إلى النساء.

أمة نحن لا نعيش إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنا وأنت المتكلم والسامع، إن لم نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وإلا فاعتبر أن الخزي سوف يحل بنا والذل ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟

يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

يقول ﷺ: «**إنما هلك الذين من قبلكم أن الرجل منهم كان ينهى الرجل ثم لا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه من آخر النهار، فلما فعلوا ذلك لعنهم الله وحوّلهم قردة وخنازير**»[1]، أذلهم إذلالاً ما شهد التاريخ مثله بل كتب عليهم اللعنة في كل كتاب وعلى لسان داود وعيسى بن مريم عليهما السلام.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يفتقر إلى أمر إلاّ من الواحد الأحد، وإذا فعلت ذلك فتأكد أن الدمار والخسار سوف يحل بالبلاد والعباد.

صعد أبو بكر على المنبر رضي الله عنه وأرضاه فقال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون آية وتحملونها على غير محملها، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشكوا أن يعمهم الله بعذاب من عنده**»، حديث صحيح.

أي: إذا رأوا المنكر وسكتوا، ولا تكلموا، بل جعلوها للهيئات وتخلّوا عن المسؤولية وعاشوا سلبيين، أوشك الله أن يأخذ الناصح والطالح والمصلح والمفسد ثم يلعنهم كما لعن الذين من قبلهم.

(أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو في سكرات الموت)، هذا باب بوّبه أهل السنة في كتبهم قالوا: عمر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو في سكرات الموت.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

طُعِن أمير المؤمنين عمر لأن الأبطال يموتون شهداء، نزف دمه كالماء فماذا يقول عمر؟ كان يذرف الدموع ويقول: يا ليت أمي لم تلدني، يا ليتني ما عرفت الحياة!! يا ليتني ما توليت الخلافة.

طوبى لك يا أمير المؤمنين، والله يا ليت أيامك تتكرر.

أيا عمر الفاروق هل لك عودة ... فإن جيوش الروم تنهى وتأمر
رفاقك في الأغوار شدّوا سروجهم ... وجيشك في حطين صلوا وكبروا
تغنّي بك الدنيا كأنك فاتح ... على بركات الله يرسو ويُبحر

كان دمه يثعب، وكانت عيناه تُهراق بالدموع ويقول: هل صليت؟ لأنه طعن في الركعة الأولى وما أكمل الصلاة، فكانت شغله الشاغل يريد أن يلقى الله بالصلاة... لا سأل عن زوجة... ولا عن منصب ولا عن دار ولا عن قصر ولا عن خلافة... ولا عن مُلْك.

قال: هل صلّيت؟

قالوا: يعينك الله وتُصلي.

فأعانه الله وأتم الصلاة، وكان يقول في سكرات الموت: الصلاة... الصلاة ...اللّهَ اللّهَ في الصلاة، لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة... ومن حفظ الصلاة حفظه الله، ومن ضيَّع الصلاة ضيَّعه الله.

فأتى شاب إلى عمر وهو في الرَّمَق الأخير فسلّم عليه، فلما ولّى وجد عمر إزاره نازلاً تحت الكعبين فقال: تعال يا ابن أخي... رضي الله عنك، حتى في ساعة الصفر تأمر، حتى في الساعة التي ينسى الإنسان فيها حبيبه وزوجته وولده، تأمر.

قال: تعال يا ابن أخي ارفع إزارك... ارفع إزارك فإنه أتقى لربك وأنقى لثوبك.

قال الابن «الغلام»: جزاك الله عن الإسلام خير الجزاء... إي والله.

يقول عليٌّ لعمر وهو مكفّن يُصَلّى عليه وأصبح جنازة: والله ما أريد أن ألقى الله بعمل رجل إلا بعملِ كعمله.. لقد كُفِّنت سعادة الإسلام في أكفان عمر.

إنما الشاهد أنه أمر في ساعة حرجة بالمعروف ونهى عن المنكر.

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**[1]. أيُّ إيمان يبقى مع الإنسان الذي يجوب الأسواق والمتنزَّهات والشواطىء وينظر إلى هذه المناظر ثم لا يُنكر قلبه على أقل الأحوال؟.. والله إن الإنسان يصيبه المرض... وإنه يأسف أسفاً شديداً وإن قلبه يكاد يتمزَّق حسرة على هذه الأمة.

أجُدَّة القريبة من مهبط الوحي... من الحرم!!! أجُدَّة، البلد الإسلامي... أجُدَّة، بلد الصحوة وبلد الدروس والعلم!! أشاطئوها يشهد هذه الأمور؟!!!

إنه أمر يؤسف كل مسلم.

أقول لإخواني إن طريق الهداية قد فتحت أبوابها، فعودوا إلى الواحد الأحد... وإن واجبنا نحن يا دعاة الإسلام أن ننزل إلى الناس، وهو العنصر الثاني (آداب الدعوة)، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

وواجبنا أن نرحم الناس، وأن نشفق على الناس... لماذا نبقى في مساجدنا والناس يتهالكون؟.. لماذا نبقى والمعاصي طمّت

---

(١) رواه مسلم.

وعمّت؟.. أما نخشى أن يأتينا أثرها ونحن في بيوتنا؟.. لا إله إلا الله... إن واجبنا أن نأتي بالأسلوب الذي أتى به محمد ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.. الواحد الأحد.. فالناس والله يدعون إلى كياناتهم وإلى أساليبهم وإلى قوانينهم... أفلا تدعو أنت إلى الله؟

وفي بعض الآثار أن الملائكة بكت لبكاء يعقوب عليه السلام، وكان أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه يقرأ سورة يوسف في صلاة الفجر فإذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ بكى وبكى الناس معه.

فتفارق يوسف ويعقوب عليهما السلام أربعين سنة.

بنتم وبنّا فما ابتلت جوارحنا   شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناديكم ضمائرنا   يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء   ففي مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

ثم انتقل سبحانه إلى يوسف عليه السلام وهو في الجبّ فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ لقد كان هو في صحراء ليست بمؤنسة ليس معه إلا الذئب، ولكن الله أتى بهذه القافلة وبهذا الموكب العظيم لينقذ يوسف عليه السلام من الجب، فقد ضلَّت القافلة طريقها وكانت قد أتت تريد فلسطين، فضلَّت لحكمة أرادها الله.

فعناية الله تكون لمن يريد الله.

ورعاية الله تلازم عباد الله.

يقول ابن الجوزي في صفة الصفوة وهو يتحدث عن رعاية الله وعناية الله: يقول أحد الصالحين: رأيت عصفوراً يأتي بلحم ويذهب إلى نخلة بالصحراء، فتتبعته فوجدته كل يوم يأخذ من المزبلة لحماً

وخبزاً ويذهب به ويضعه في تلكم النخلة، فصعدت لأرى ماذا في النخلة.. وعهدي بالعصفور أنه لا يعشعش في النخل، فرأيت حية عمياء كلما أتى هذا العصفور بهذا اللحم فتحت فاها وأكلت منه.

فالذي سخّر العصفور لها هو الذي سخّر تلكم القافلة ليوسف.

عجباً من قلبك الفذ الكبير

وأخرج الله من صلب الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد... الذي قاد مائة معركة... خالد الذي أبلى بلاءً حسناً في الإسلام... خالد الذي قدّم دموعه ووقته في خدمة لا إله إلا الله. وأخرج من صلب أبي جهل عكرمة بن أبي جهل... الذي أتى في اليرموك رضي الله عنه وأرضاه... فلما التقى الجمعان: الإسلام والكفر... الضلال والحق... خرج فاغتسل ولبس أكفانه وقال لأصحابه: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، هل لكم وصية إلى رسول الله ﷺ؟

قال الجيش: بلّغه عنا السلام.

فأخذ السيف وخاض المعركة وقُتل، وبينما هو في الرَّمَق الأخير أعطاه خالد الماء ليشرب فقال: أعطه غيري.

فيعطونه جريحاً آخر فيرفض أن يشرب، فيأتون الآخر فيرفض إلا أن يشرب عكرمة... فيعاد بالماء إلى عكرمة فإذا هو قد فارق الحياة.

عفاء على دنيا رحلت لغيرها فليس بها للصالحين معرج
كدأب علي في المواطن كلها أبي حسن والغصن من حيث يخرج

قال: فحوَّله خالد إلى الآخر فوجده قد مات، وحوَّله إلى الآخر فوجده قد مات، فبكى خالد حتى سُمع صوت بكائه، ورمى الكوب من يده وقال: اللهم اسقهم من جنتك فإنهم قد خرجوا في سبيلك، اللهم اجمعنا بهم في الجنة.

والشاهد: أن محمداً ﷺ تحمّل وصبر حتى قدم إسلاماً بديعاً للناس.

يقول الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فهو عظيمٌ خُلُقُه عظيم صبره، قاتله أقاربه وجرحوا مشاعره.. وضربوا بناته وآذوه وسبُّوه وشتموه وأخرجوه من دياره... وفي الأخير لما انتصر عليهم وفتح مكة.. وطوّق الحرم بالجيش قال لكفار مكة: ما ترون أني فاعل بكم؟

فتباكوا وقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء غفر الله لكم[١]... بل رفع الله منزلتك وآتاك الله الوسيلة حتى يقف أبو سفيان أمامه يبكي ويقول: لا إلٰه إلا الله ما أرحمك، ولا إلٰه إلا الله ما أبرَّك، ولا إلٰه إلا الله ما أوصلك.

وأتاه أبو سفيان بن الحارث ابن عمه بعد أن فرّ بأطفاله لأنه آذى الرسول ﷺ، فقال له علي بن أبي طالب: إلى أين تسير يا أبا سفيان؟

قال: أخرج إلى الصحراء فأموت أنا وأطفالي جوعاً وغرياً وعطشاً.

قال له: ولماذا؟

قال: إن أدركني محمد قطعني بالسيف إرباً إرباً.

قال: عُدْ إليه وسَلِّم عليه بالنبوة وقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

فعاد إليه ووقف على رأسه وسلّم عليه وقال: يا رسول الله.. ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

(١) سيرة ابن هشام (٢/٤١١).

فرفع ﷺ طرفه وقد هملت الدموع على محيّاه الجميل وقطّرت لحيته بالدموع.

إذا اشتبكت دموع في خدود تبيّن من بكى ممن تباكى

فقال ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

نعم نجح نجاحاً ما شهد التاريخ مثله، العدو يأتيه فينقلب صديقاً بدعوته.

أتاه رجل فقال: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأتوب من كل معصية إلا الزنا.

فقام الصحابة يريدون أن يؤدِّبوا هذا الرجل... لأنه يتكلَّم بالفاحشة أمام الرسول ﷺ.

فقال: دعوه.. اتركوه.. فتركوه.. فقال له: تعالَ.. فأجلسه بجانبه ووضع يده الشريفة على كتفه وقال: أترضى الزنا لأمك؟

قال: لا والله.

قال: أترضاه لأختك؟

قال: لا والله.

قال: أترضاه لابنتك؟

قال: لا والله.

قال: أترضاه لزوجتك؟

قال: لا والله.

قال: فهل يرضاه المسلمون لأخواتهم وبناتهم... أو كما قال ﷺ(١).

---

(١) رواه أحمد.

قال: أتوب يا رسول الله من الزنا... فوضع ﷺ يده على قلب الرجل وقال: اللهم طهّر سمعه وبصره وحصّن فرجه.

وأصبح الرجل في ميزان الإسلام... وأصبح من الدعاة... لأن اللبيب عرف كيف يقود هذا إلى الهداية.

إننا تنقصنا الحكمة... وإننا تنقصنا الرحمة... وإننا تنقصنا الشفقة... وإنه ينقصنا الأسلوب... إننا ركّزنا اهتماماتنا بالمساجد وتركنا هذه الأماكن!! أهل المساجد جاهزون أتوا يصلون فهم مستقيمون عابدون صادقون ساجدون راكعون، لكن إخواننا... أقاربنا... أبناؤنا... أعراضنا... أخواتنا في أماكن اللهو فمن يهديهم إلى صراط الله المستقيم؟

يقول ﷺ: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»[١]، وقال ﷺ: «**نضّر الله امرءاً سمع مني مقالة فوعاها فأدّاها كما سمعها، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع**»[٢].

وصحّ عنه ﷺ أنه قال: «**بلغوا عني ولو آية**»[٣].

والله ذم من كتم العلم. ومن جحد معروفَ الله له في الدعوة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

وتقصيرنا في الدعوة أتى من أمور:

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني في المشكاة (٢٣٠).
(٣) رواه البخاري.

منها: أنه يوجد من يُشهّر بالعصاة، فيشهِّر بأسمائهم أو يبكتهم بالعتاب أمام الناس، أو يتحدَّث لهم أمام الناس في معصيتهم وهذا خطأ.

يقول الشافعي:

تعمَّدني بنصحك في انفراد وجنِّبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت أمري فلا تجزع إذا لم تُعط طاعة

ومنها: أننا لا نصبر في إيصال الحق إلى أصحابه.

ومنها: أن بعض القوالب التي يُؤدى بها المعروف تكون فظة غليظة لا يقبلها الناس ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

يقول جرير بن عبدالله: والله ما زال ﷺ... كلما رآني يبتسم في وجهي.

ويقول عمرو بن العاص: ما زال ﷺ ينظر إليَّ حتى ظننت أنني أفضل من أبي بكر وعمر.

فاللين وإيصال الحق في قالب الرحمة وعدم التشهير بالعصاة من أسباب الهداية لأن الناس بهم خير.

وأنا أذكر قصةً لرجل سمعتها منه مباشرة.. وهو داعية موفق نوّر الله قلبه وبصيرته وآتاه الله الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

يقول: كان في بلدنا رجل مجرم بمعنى الكلمة.. هذا المجرم مروِّج للمخدِّرات وسبق أن رجال الأمن طاردوه وطاردهم وضايقوه وضايقهم... وكانَ يحملُ السِّلاح... قطع والديه وقطع أرحامه ونسي الله... وتردّى في المعاصي حتى أعجز الناس.

قال: فأتتني فكرة لأن يهديه الله على يدي. فكنت أقوم في آخر الليل في السحر وأتضرع إلى الله أن يجعل هدايته على يدي، وصُمْتُ قبل أن أصل إلى بيته يوماً لعل الله أن يجعله من العمل الصالح الذي يُتقرَّب به إلى الله، ثم أخذت هدية... وما أحسن الهدية! هدية تأخذ القلوب وتجلب الأرواح يفعلها محمد ﷺ وأتباعه.

قال: وذهبت بها إلى بيته، فلما رأيته سلَّمت عليه وقلت له: أحببتك في الله... ورأيت عليك آثار الخير!!! من أين آثار الخير فوجهه كقفاه! فهو أسود من الليل!.. لكن انظر إلى الأساليب.. انظر إلى السحر الحلال.

ففي السحر: سحر حلال، وسحر حرام... السحر الحلال تبسمك في وجوه الرجال... وأن تعانق العصاة لتقودهم إلى الجنة ليكونوا في ميزان حسناتك.

فالكلمة الفظَّة سهلة... وتعقيد الجبين سهل... والهراوة سهلة... والكرباج سهل... لكنها تهدم ولا تبني، وتشرِّد ولا تقرِّب، وتقسي ولا تلين... ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله.

وقال ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع الرفق من شيء إلا شانه**»(١)، ويقول ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**»(٢).

قال: فنظر فيَّ وقال: أتعرفني؟

قلت: لا وإنما رأيتك في مناسبات فخذ هذه الهدية، فأخذها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

قال: وما كلمته بكلمة واحدة وعدت إلى بيتي.. وقلت: الحمد لله نجحت في أول خطوة.

وبعد أيام ذهبت إليه وقلت: أسألك بالله أن تأتي إلى بيتي في زيارة فإني أحببتك.

قال: آتيك.

فحدَّدت له موعداً ليس إلا أنا، وهو فدخل بيتي.

فدخل البيت وتغدَّى.

قال: والله ما كلمته بالدعوة بكلمة، فخرج فقلت: هذا نجاح ثاني.

قال: ومرة ثالثة قلت له لديّ سفر إلى قرية قريبة وأريد أن تركب معي... فركب معي.

قال: فلما ركب معي ابتهلت إلى الله ودمعت عيناي، فدعوت الله أن يرزقني الصدق وأن يجري الحق على لساني.

قال: فلما ركب انطلقت في الكلام وأتت فتوحات من الواحد الأحد... ما أدري من أين انهال هذا الكلام فأخذتْ دموعه تتسابق. فقد أحيا الله الفطرة... وأخرج الله الفطرة من مكانها.. واشتعلت الفطرة في قلبه.. وتحركت لا إله إلا الله في روحه.

قلت له: أريد أن أجنبك النار... أريد أن أقودك إلى الجنة في كلام طويل.

قال: مد يدك... فمددت يدي.

قال: أُشهِد الله وملائكته وحملة عرشه، ثم أُشهدك أني تبت إلى الله، وأسألك بالله الذي لا إله إلا هو قبل الفجر أن تمر عليّ لتأخذني إلى المسجد.

وعدت إلى القرية، وبعد أيام كان يصلي معي في المسجد، ودخل على والده ووالدته وكانا كباراً في السن.. وقد هجرهم سنوات.

فدخل عليهم وآثار الخير والنُّور يشعان من وجهه فقالوا: أأنت فلان؟

قال: أنا فلان.. ثم قبّل يد أبيه ورأسه ويد أمه ورأسها، فانطلقوا يبكون فرحاً في البيت.

طفح السرور عليَّ حتى أنني ... من عظم ما قد سرَّني أبكاني

فيا مسلمون، بمثل هذا فليعمل العاملون، وهو أسلوب محمد ﷺ الفذ العجيب الذي وصل به إلى قلوب الناس والذي أخذ أعدى الناس حتى أصبحوا في صفِّه ﷺ.

العنصر الثالث: الفتن ونعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

كان ﷺ يقول لعمّار: استعذ بالله يا عمار من الفتن، فيقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

ويقول ﷺ في الصحيح: «**يوشك أن يكون خير ما للمرء المسلم غنم يتتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر يفر بدينه من الفتن**»[1]. وحدث هذا، فيتمنى الإنسان يوم يرى بعض المناظر أنه ما عرف الحياة أو أنه بجبل يتصل بالله في شعب من الشعاب، لكن ماذا يفعل؟ أينسحب؟. أينهزم؟. والله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

---

(١) رواه البخاري.

فلا بد من كلمة الحق... ولا بد من الدعوة إلى منهج الله سبحانه وتعالى.

ومن علامات الفتن التي أخبر بها ﷺ ما ثبت في الصحيحين أنه قال: «**صنفان من أمتي لم أرهما اليوم... أناس معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس... ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البُخت لا يجِدْن رائحة الجنة**».

أما النساء، فقد رأينا نساء مائلات مميلات، يُمِلْن القلوب ويُملن الأرواح... مميلات للأفئدة... وقيل يمِلْن بأجسادهن وحدَث هذا.. فأصبحت فتاة الإسلام تخرج من بيت أبيها متجمِّلة متعطِّرة.. متطيبة نابذة لا إله إلا الله وراء ظهرها لتقول للمجرمين: انظروا.

ثم تعود..

بماذا تعود؟ بلعنة والعياذ بالله، صح عنه ﷺ أنه قال: «**إذا تعطَّرت المرأة وتزيَّنت، وخرجت من بيت زوجها** (يعني بدون إذنه)، **لا زالت الملائكة تلعنها حتى تعود إلى بيتها**»، وفي لفظ السنن: «**فهي زانية**»، لأن العيون نظرت إليها... فحذاري حذاري من هذه الفتن.

ويقول ﷺ: «**ما تركت على أمتي فتنة أشد من النساء**»(١)، فإبليس ما استطاع أن يغوي كثيراً من المهتدين إلا بطريق النساء.

فأقول للنساء، لعل سامعة أن تسمع، ولعل مبصرة أن تُبصر... ولعل مؤمنة أن ترى وأن تتدبَّر وتتفكَّر... يا أختي... يا أمي... يا أيتها المسلمة: اتقي الله في إيمانك وعِرضك، اتقي الله في المجتمع... اتقي الله في العباد والبلاد... أنت المسؤولة عن الفتن... وتعريض غيرك للمخاطر.

---

(١) متفق عليه.

يا أَمَة الله: بيتك... بيتك... يا أَمَة الله: أين الإيمان؟ أين تربية محمد ﷺ؟ أين قول الله عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وقفت عائشة بعد وفاة الرسول سنوات في بيتها وكانت تتهجَّد وتردد: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وصح عنها أنها قرأت في ضحى إلى الظهر قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ وتبكي... أين هذه التربية الخالدة؟ أين تربية الإسلام؟

وإني أوصي المسلمة بثلاث وصايا:

أولها: أن تكون مربية في البيت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

الخنساء تقدمت في القادسية كما قال بعض أهل التاريخ بأربعة أبناء، فألبستهم الأكفان وطيَّبتهم وقالت: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، لا تعودوا إلا قتلى ليشرِّفني الله بشهادتكم... فقُتلوا في سبيل الله، فلما أُخبرت تبسَّمت وقالت: الحمد الله الذي شرَّفني بقتلهم في سبيله.

أيُّ امرأة هذه؟ المرأة المسلمة... أيُّ تربية هذه؟ التربية الحرة.

أراد عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أن يخطب فاطمة فدخل على الرسول ﷺ.

قال: فاستحييت من رسول الله ﷺ.

قال ﷺ: **كأنك تريد فاطمة**.

قلت: نعم يا رسول الله.

قال: **عندك شيء من مال؟**

قلت: والله ما عندي شيء!! عليٌّ بن أبي طالب لا يملك شيئاً! لكنه يملك الإيمان.. ويملك التوحيد.. ويملك لا إله إلا الله.. ويملك قصوراً في الجنة.. وسعة في الجنة.. وبساتين في الجنة.

قال ﷺ: **أين درعك الحُطمية؟**

قال: فأتيت بها مكسرة لا تساوي درهمين.. فزوَّجه ﷺ.

يقول محمد إقبال عن فاطمة:

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟

من ذا يساوي في الأنام عُلاها
أما أبوها فهو أشرف مرسل
جبريل بالتوحيد قد ربَّاها
وعليٌّ زوج لا تسل عنه سوى
سيفاً غدى بيمينه تيَّاها

زارهم ﷺ في الليل.. فاستناروا بنوره في الظلام.. وصلهم وهم نائمين. فقالت فاطمة: يا رسول الله طحنت الرحا حتى كلّت يدي، وكنست حتى تدنست ثيابي، فهل من خادم؟ تعني جارية تخدمها، تريد خادمة.

فانتظر ﷺ ثم أتاها بعد ليالي وقال: ألا أخبركم بخيرٍ لكم من خادم... بإمكانه أن يعطيها ذهباً ﷺ وفضة... وخدماً... ولكنه يريد لها الجنة. تأتي يوم القيامة على ناقة من نور، خطامها نور يشق لها الناس الطَريق وهي بنت محمد محجبة ...ﷺ.

قال: ألا أدلكما على خير لكما من خادم؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «**إذا أويتما إلى مضجعكما، فسبِّحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمدا الله ثلاثاً وثلاثين، وكبِّرا الله أربعاً وثلاثين، فهي خير لكما من خادم**».

أتته سكرات الموت ﷺ، فاقتربت منه رضي الله عنها وأرضاها فأخذت تبكي. يقول لها ﷺ: «**أنت أول الناس لحاقاً بي**»، وعلمتْ أنه سوف يموت في ذاك المرض فأخذت تبكي فقال: ادني يا بنية.. فدنت رضي الله عنها وأرضاها من المصطفى ﷺ، فلما دنت من المصطفى ﷺ قال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين**»[1]، فتبسَّمت.

إن النموذج الخالد نساؤه ﷺ وبناته والمؤمنات الصادقات الصالحات.

فلماذا هذا التكشف؟ لماذا هذا العُري؟ لماذا مخالفة الحجاب؟ لماذا الخروج على أمر الله؟ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

تكشف على الشاطىء... تكشف مع الخياط... تكشف مع بائع الذهب، أين الإيمان؟ أين التقوى؟ أين الخوف من الواحد الأحد؟

يقول أهل العلم: كان من الصالحين رجل صدِّيق فأتى بعض الفجرة وقالوا: والله لنغوينّه، فأتوا إلى مُومسة والعياذ بالله فأعطوها مالاً وقالوا لها: تعرضي لذاك العابد في ظلام الليل.

فتعرضت له، ولما رآها وهي متكشِّفة رأى الجمال فقال لها العابد وقد نكس بصره: يا ذات الجمال اتقي ناراً تلظّى، لا تلفح وجهك النار.

---

(١) متفق عليه.

فأخذت تبكي وتابت إلى الله!

يا ذات الجمال... يا ذات الخِدر... يا ذات العِرض... يا بنت الإسلام، يا فتاة الدين... احذري نار جهنم أن تلفحك بحرارتها. فالله عز وجل أرصد للعصاة ناراً... ووعدهم نكالاً... وأكلهم زقُّوم وشرابهم الصديد، فاحذري أن يكون مصيرك بعد هذا اللهو وهذا الفتون، وهذا اللعب وهذا التمرد على منهج الله أن يكون ناراً تلظى... ويكون ضياعاً وخسراناً... نعوذ بالله من الخذلان.

تزوَّد للذي لا بد منه   فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قومٍ   لهم زاد وأنت بغير زاد

ولكن كيف تُربى المسلمة؟ كيف تربى المسلمة التي تخاف الله عز وجل؟ وترجو لقاء الله تبارك وتعالى؟

نربيها بالصلاة... بالحجاب... بذكر الله... بالكتاب الإسلامي... بالشريط الإسلامي، بالاتصال بالله الواحد الأحد.

العنصر الرابع: حياة اللهو واللعب.. فكثيرٌ من الناس ميت!!! يأكل ويشرب ويرقص ويغني ويستمع الأغنية ويطالع المجلة ويلعب البلوت... والباصرة... والورقة... فهو عبد لشهواته، وعبدٌ لبطنه... وعبد لفرجه... ولكنه ميت تماماً ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

لا إله إلا الله كم سفكوا من النظرات؟ ولا إله إلا الله كم اعتدوا على الحرمات؟ ولا إله إلا الله كم أغضبوا رب الأرض والسموات؟ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

عاشوا على العود وهجروا المصحف... عاشوا على الدندنة وهجروا التلاوة... عاشوا على المقهى الأثيم الأحمر وتركوا المساجد. هجروا القرآن من أجل المجلة الخليعة.

ولكن مع ذلك هم على الفطرة، ولكن مع ذلك هم مستعدُّون أن يعودوا إلى الله.. ومع ذلك ما زالت حرارة لا إله إلا الله تتوقد في قلوبهم.

والحمد لله.. لقد عاد كثير منهم إلى الهداية بعد أن جرّبوا كل شيء فما وجدوا السكينة.

نعم، إنها صحوة وعودة إلى الواحد الأحد، لأن الناس جرَّبوا الضياع فما وجدوا العيش إلا في كَنَفِ الله... أي شيء وجد من فَقَدَ الله؟.. وأي شيء فَقَدَ من وَجَدَ الله؟

ولو إنا إذا متنا تُركنا لكان الموت غاية كل حي
ولكنّا إذا متنا بعثنا ويسأل ربنا عن كل شي

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

لقد اهتدوا وعادوا وسجدوا للواحد الأحد، وبكوا وتغسلوا بالدموع، وتوضأوا بماء الحسرة، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ولكن لا زالت بقية من الشباب ـ هداهم الله ـ مُعْرضين عن الحق، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

فكثير من النَّاس يعيش لجسمه فقط، فهو يريد أن ينزه جسمه... في الصيف في أبها أو في الطائف... وفي الربيع في جدة

على الشواطئ في فيلا... وفي مكيف... وفي نعيم... وفي رغد... وفي فسحة... وفي نظر.. أما جسمه فغذّاه ولكنّه أهلك قلبه هلاكاً ما بعده هلاك.

يا متعب الجسم كم تسعى لراحته ... أتعبت جسمك فيما فيه خسران
أقبل على الرُّوحِ واستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان
يا عامراً لخراب الدار مجتهداً ... فهل لخراب الدار عمران

ثابت البناني - محدِّث كبير - بكى حتى ذهبت عينه من خشية الله وبقي على عين واحدة، فقالوا: نخرج بك إلى حدائق خراسان لعلك ترى الخضرة والماء.. ولعلك إذا رأيت الخضرة أن يعود لك بصرك.

فخرجوا به فرأى الحدائق الغنَّاء في خراسان... ورأى البساتين... ورأى الماء يجري، ولكن كلما رأى بستاناً بكى وتذكَّر الجنة... وكلما رأى حديقة بكى وتذكر الجنة.

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى ... فهيّج أشواق الفؤاد وما يدري
دعـا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

ولما عاد إلى البصرة قالوا: كيف وجدت الرحلة؟

قال: والله ما أعجبني في نزهتي كلها إلا عجوزاً رأيتها تصلي ركعتي الضحى ..لله درُّك!!!

والله إن هناك من ينظر إلى هذه القصور وهذا العمار وهذه الدور وكأنها الأحذية أو التراب أو الرماد، يوم يتفكر في جنة عرضها السموات والأرض، لأننا وإن طال تمتعنا فحتماً سنردّ إلى مولانا ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾﴾.

دخل ﷺ المسجد فارتقى المنبر فقال للصحابة: أنقاتل كفار قريش في أحد أو في المدينة؟

قالوا: نقاتلهم داخل المدينة.

فقام شاب من الأنصار من آخر الصفوف وقال: يا رسول الله.. لا تحرمني دخول الجنة، والله الذي لا إله إلا هو لأدخلنَّ الجنة.

فقال ﷺ: **بمَ تدخل الجنة؟**

قال: بخصلتين: بأني أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف... فدمعت عيناه ﷺ وقال: «**إن تصدق الله يصدقُك**» وخرجوا يوم أحد فكان أول مقتول!

أتى عبدالله بن عمرو الأنصاري فنام قبل المعركة (معركة أحد) بليلة، فرأى في المنام أنه أول مقتول أو من أول مَن يُقتل، فأيقظ بناته في الليل فودَّعهم آخر ليلة، والليلة الثانية كان مع الله في ضيافة الواحد الأحد ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾.

فلما أيقظ بناته قال: أستودعكن الله الذي لا تضيع ودائعه... رأيت أني أول من يُقتل غداً، ويا جابر عليك بأخواتك خيراً.

وأتى الصباح الباكر... الصباح البهيج... صباح أهل الجنة... والتقى مع الكفار فقُتل.. وضُرب ضرباً في جسمه مُبرحاً. فأتى ابنه يبكي فيقول ﷺ: **ابكِ أو لا تبكِ، والذي نفسي بيده ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعته... والذي نفسي بيده يا جابر لقد كلَّم الله أباك كفاحاً بلا ترجمان، فقال له: تمنّ.**

قال: أتمنى أن تعيدني إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية.

قال: إني كتبت على نفسي أنهم إليها لا يرجعون، فتمنّ.

قال: أتمنى أن ترضى عني فإني قد رضيت عنك.

فقال الله: فإني قد أحللت عليك رضواني لا أسخط عليك أبداً[1].

حياة هي حياة الجنة... وحياة القرب من الله الواحد الأحد.. وحياة هي حياة التوفيق والسعادة ومن حُرِمها فقد حرم الأمان ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وابن تيمية قال له الملك: تريد مُلْكاً؟

قال: والله ما أريد ملكك ولا ملك أبيك ولا ملك أجدادك، لكن أُريد جنة عرضها السموات والأرض.

فيا مسلمون: لا يغرنَّكم بالله الغرور: نعيم.. بساتين.. نزهات.. ماء.. ظل.. فكلها تتلاشى ولا يبقى إلا ما عند الواحد الأحد.

دنياك تزهو ولا تدري بما فيها ... إياك إياك لا تأمن عواديها
تحلو الحياة لأجيال فتنعشهم ... ويدرك الموت أجيالاً فيفنيها
فاعمل لدار غداً رضوان خازنها ... الجار أحمد والرحمٰن بانيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

اللهم اجعلنا من ورثة جنة النعيم.

العنصر الخامس: عقوبات المعاصي:

من أعظم عقوبات المعاصي أن يضرب الله قلوبنا ضرباً ما بعده ضرب... وهو ضرب القسوة ـ نعوذ بالله من قسوة القلوب ـ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

(١) سيرة ابن هشام (٨٣/٢)، وأصله في الصحيحين.

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾.

ولكن كيف لا يقسو قلب اللاعب.. اللاهي.. قلب المغني.. قلب الذي لا يعرف الصلوات الخمس في المسجد.. قلب الذي يعيش حياة كأنها حياة الخواجات.. فلا يعرف من الإسلام إلا رسمه أو اسمه، فهو مسلم بالحفيظة، ولكنه لا يحمل من الإسلام شيئاً.

عدَدُنا كثير، فالمسلمون مليار لكن:

عدد الحصى والرمل في تعدادهم فإذا حسبت وجدتهم أصفاراً
من كل مفتون على قيثاره كلاً رأيت بفنه بَيْطاراً

ومن آثار الذنوب: البغضاء التي تحدث بين القلوب، ولذلك تشتَّتت الأسر.. وقُطعت الأرحام.. وعق الوالدين.. ونشكو حالنا إلى الواحد الأحد.

ومن عقوبات المعاصي: قلة البركة... قلة البركة في الأموال والأولاد، جيل في البيوت من الأبناء والأولاد والبركة فيهم قليلة.. وأموال كالجبال وبنوك ولكن لا بركة.

ومن عقوبات المعاصي: فساد طعم الحياة، وهذا يُسَمَّى انطفاء النور..

قال الإمام مالك للشافعي: إني أرى عليك آثار النور والنباهة فإياك أن تفسد نورك ونباهتك بالمعصية.

وقال آخر: نظرت إلى منظرٍ لا يحل لي فنسيت القرآن بعد أربعين سنة، فنعوذ بالله من الخذلان والمعاصي والحرمان.

وأختتم هذه الرسالة بعنصرٍ: هل من توبة؟

هل من توبة يا مسلمون؟ وهل من عودة إلى الله الواحد الأحد؟

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

أتى رجل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله: أذنبت.

قال: **تُبْ إلى الله.**

قال: ثم أذنب. فقال: **تُبْ إلى الله.**

قال: ثم أذنب. فقال: **تُبْ إلى الله.**

قال: إلى متى؟

قال: **حتى يكون الشيطان هو المدحور**(١).

كلما أذنبت فتب إلى الله الواحد الأحد، واغسل خطيئتك بماء التوبة واستغفر. . . وراجع حسابك مع الله. . . واعلم أن التوبة واجبة.

وبادر بالتَّوبةِ النَّصوح — قبل احتضار وانتزاع الروح
لا تحتقر شيئاً من المأثم — وإنما الأعمال بالخواتم
ومن لقاء الله قد أحبَّا — كان له الله أشد حُبّاً

حضروا أبا بكر وهو في سكرات الموت رضي الله عنه وأرضاه قالوا: يا خليفة رسول الله. . . ماذا تشتكي؟

قال: أشتكي ذنوبي!! ذنوبك يا أبا بكر!! ذنوبك وأنت المجاهد الأول. . والمصدِّق الأول. . والزاهد الأول.

قالوا: ماذا تريد؟

قال: أريد المغفرة.

---

(١) رواه ابن حبان.

قالوا: هل ندعو لك طبيباً؟

قال: الطبيب قد رآني.

قالوا: مَاذا قال لك؟

قال: قال: إني فعَّال لما أريد!

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي قد أصابني من طبيبي

يقول بعض أهل التفسير: كان إبراهيم عليه السلام يقول في السَّحَر: أوّاه من ذنوبي.. أوّاه من خطاياي.. أوّاه من سيئاتي... فسمّاه الله أوّاهاً منيباً.

وقال الإمام أحمد في كتاب الزهد: كان بلال يقول مع السَّحر: اللهم هذا إقبالُ نهارك وإدبار ليلك... وهذا سَحَر فاغفر لي عللي.

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: يا ليتني كنت رماداً تذرني الرِّياح.

وقال عمر: يا ليتني كنت شجرة أُعْضَد.

وقال ابن مسعود: والله لو علمتم ذنوبي لحثوتم على رأسي التراب. رضي الله عنهم وأرضاهم... كانوا أطهاراً... كانوا عبَّاداً... ليلهم سهر مع الواحد الأحد.. قيام ودموع وخشوع وخضوع وركوع، ونهارهم جهاد ودعوة وبذل وعطاء.

فما بال ليلنا اليوم تحوَّل إلى موسيقى... وإلى غناء... وإلى لهوٍ... وإلى فُحْش... وإلى معصية إلا من رحم ربك؟

وتحوَّل النهار إلى غيبة ونميمة وشهادة زور... وإلى نظرٍ محرَّم.

فنشكو حالنا إلى الله.

يا رب عفوك لا تأخذ بزلتنا		وارحم أيا رب ذنباً قد جنيناه
كم نطلب الله في ضَرٍّ يحل بنا		فإن تولّت بلايانا نسيناه
ندعوه في البحر أن يُنجي سفينتنا		فإن رجعنا إلى الشاطىء عصيناه
ونركب الجو في أمن وفي دعة		فما سقطنا لأن الحافظ الله

والعجيب أن الله عُصي في البر والبحر وعلى الشاطىء وفي الطائرات.

فسبحان من يعفو.

نسأله تعالى أن يتوب علينا... وأن يرد ضالّ المسلمين... وأن يهدينا إليه هداية عامة مطلقة.

اللهم إنا قد أسلمنا وآمنّا وصدّقنا.. اللهم فافتح لنا باب القبول.

اللهم أغثنا بفضلك ومنّك وكرمك... اللهم رُدَّ ضال المُسلمين، اللهم اهدنا سواء صراطك المستقيم... وثبتنا على الحق إلى يوم أن نلقاك.

وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً.

❋ ❋ ❋

أمير وفقير

الحمدُ لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعلَ في السماء بروجاً وجعلَ فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعلَ الليل والنهار خلفةً لمن أرادَ أن يذَّكَّر أو أراد شكوراً، وتبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، الذي له ملكُ السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكاً في الملك، وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً.

وأشهدُ أن لا إلٰه إلاَّ الله، وأشهد أنْ محمداً عبده ورسوله، بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أسكتَ الله به الجاهلية، فلم تتكلَّم، وهدم به الوثنية فلم تُبنَ، وأزال به أوضاع الشرك فلم يعُد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

يقول ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ

وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾﴾.

ما هي الحياة؟

ما هو ذهبها؟

ما هي فضتها؟

ما هي قصورها؟ ومناصبها ووظائفها؟

كلها لا شيء.. وإنما لعب، ولهو، وتفاخر، وتكاثر، وزهو، ورياء، وإعجاب، وظهور، ولموع.

ولكن الحقائق الباقيات هي: الإيمان، والعمل الصالح.

خرجَ علي ابن المأمون الخليفة العباسي فأشرف من شرفة القصر ذات يوم ينظر إلى سوق بغداد.

ينظر من البروج العاجيَّة.. فطعامه شهي.. ومركبه وطيء.. وعيشه هنيء.

يلبس ما جمل ويأكل ما طاب، وما جاع يوماً في حياته، وما ظمىء أبداً، وما مسَّت الشمس جبهته.

فأخذ ينظر من القصر إلى الناس في السوق، هذا يذهب، وهذا يأتي في حركة دؤوبة.

فلفت نظر الأمير رجل من الناس يعمل حمَّالاً يحمل للناس بالأجرة، وكان يظهر عليه الصلاح والنسك.

فكانت حباله على كتفيه، والحمل على ظهره، ينقل الحمولة من دُكَّان إلى دكان، ومن مكان إلى مكان، فأخذ يتابع حركاته في السوق، فكان هذا الحمَّال إذا انتصف الضحىٰ، تركَ السوق، وخرج إلى ضفاف دجلة فتوضَّأ، وصلَّىٰ ركعتين، ورفع يديه إلى الحي القيوم.

سبحان من اتَّصل به الفقراء والمساكين!

سبحان من التجأ إليه المظلومون والمضطهدون!

سبحان من عرفه البسطاء وحجب كثيراً من الأغنياء والوجهاء!

فكان هذا الحمَّال إذا صلَّىٰ الضحىٰ، عاد فعملَ إلىٰ قبيل الظهر، ثمَّ اشترىٰ خبزة بدرهم، فيأخذها إلى نهر دجلة فيبلها في الماء، ويشرب من الماء ويأكل.

فإذا انتهىٰ توضأ للظهر، وصلَّىٰ ثم دعا وابتهل وبكىٰ، ونادىٰ الحيَّ القيوم.

ثم نام ساعة وبعد النوم يستيقظ، فينزل إلىٰ السوق، فيعمل، ويجتهد ثم يشتري خبزاً ويذهب إلى بيته.

وفي اليوم الثاني: يعود إلى هذا البرنامج والجدول الذي لا يتغير، وهكذا اليوم الثالث والرابع إلى أيام كثيرة.

فأرسلَ الأمير جندياً من جنوده إلى ذاك الحمَّال ليستدعيه ليكلمه في القصر.

فذهبَ الجندي واستدعىٰ الحمَّال، فقال في نفسه: مالي ومال جنود بني العباس.. مالي ومال الخلفاء.

قالوا: أمر الأمير أن تحضر عنده اليوم.

فظنَّ المسكين أن الأمير سوف يحاسبه أو يحاكمه.

فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وهذه الكلمة سلاح الفقراء، وسلاح المضطهَدين، وسلاح المظلومين، وسلاح المساكين، لكنَّها تكسر رؤوس الطغاة.. لكنَّها تحطِّم الحواجز الحديدية.. لكنها تسحق القلاع.

فإبراهيم عليه السلام عندما أتوا به، والنار محرقة، فرموه في النار أخرج سلاحه وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فانقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء.

فدخلَ هذا الفقير على ابن المأمون الأمير فسلَّمَ عليه.

فقال له الأمير: ألا تعرفني؟

قال: ما رأيتك حتى أعرفك.

قال: أنا ابن الخليفة.

قال: يقولون ذلك.

قال: ماذا تعمل أنت؟

قال: أعمل مع عباد الله في بلاد الله.

قال: قد رأيتك أياماً ورأيت المشقَّة التي أصابتك، فأريد أن أخفِّف عنك المشقة.

قال: بماذا؟

قال: اسكن معي القصر بأهلك، آكلاً، شارباً، مستريحاً، لا همَّ ولا غمَّ، ولا حزن.

فقال: يا ابن الخليفة لا همَّ على من لم يذنب، ولا غمَّ على من لم يعصِ، ولا حزن على من لم يسيء.

أما من أمسىٰ في غضب الله، وأصبح في معاصي الله، فهو مصاحبٌ للغم، والحزن، والهم.

فسأله عن أهله.

فقال: أمي عجوز كبيرة، وأختي عمياء حسيرة، آتي بإفطارهما قبل الغروب، وهما تصومان كل يوم فنفطر جميعاً ثم ننام.

قال: فمتى تستيقظ؟

قال: إذا نزل الحي القيوم إلى السماء الدُّنيا.

قال: هل عليك من دين؟

قال: ذنوب سلفتْ بيني وبين الحي القيوم.

قال: ألا تريد معيشتنا؟

قال: لا والله.

قال: ولمَ؟

قال: أخافُ أن يقسو قلبي وأن يضيع ديني.

قال: أتفضِّل أن تكون حمَّالاً في السوق، جائعاً في الشمس، والعري، والهم، والغم، والكلفة، ولا تكون معي في قصر الإمارة؟

قال: إي والله.

فنزل وتركه.

فأخذ الأمير يتأمله وينظر وهو مشدوه بعد أن ألقىٰ عليه محاضرات من الإيمان، وطرقَ قلبه بدروس من التوحيد.

وفي ليلة من الليالي استفاق الأمير من غيبوبته وصحا من نومه، وعلمَ أنه كان في سُبات عميق، وفي نوم طويل، وأنَّ داعي الله يدعوه ليتنبَّه.

تنبَّهوا يا رقود ... إلى متى ذا الجمود
فهذه الدار تبلى ... وما عليها يبيد
الخير فيها قليل ... والشر فيها عديد
والعمر ينقص فيها ... والسيئات تزيد
فاستكثر الزاد فيها ... إن الطريق بعيد

فاستيقظ الأمير وسط الليل، وقال لحاشيته: أنا أذهب إلى مكان، فإذا أتى بعد ثلاثة أيام أخبروا أبي الخليفة المأمون أني ذهبت وسوف ألتقي أنا وإيَّاه يوم العرض الأكبر.

قالوا: ولِمَ؟

قال: نظرتُ إلى نفسي فإذا أنا في غيبوبة وفي سُبات وفي ضياع وضلال، فأنا أريد أن أهاجر بروحي إلى الله.

فخرج وسط الليل، وقد خلع لباسه ولبس لباس الفقير، ومشىٰ في الطرقات، واختفىٰ عن العيون.

ولم يعلم الخليفة ولا أهل بغداد أين ذهب الأمير.

وعهد الخدم به يوم ترك القصر أنه ركب إلى واسط كما يقول أهل التاريخ، وقد غيَّر هيئته وأصبح كهيئة المساكين، وعمل مع تاجر التجَّار في صنع الآجر.

فكان له أوراد. في الصباح يحفظ القرآن، ويصوم الاثنين، والخميس، ويقوم الليل، ويتصل بالحي القيوم، وما عنده من المال ما يكفيه يوماً واحداً.

فذهب غمُّه وهمُّه، وذهب حزنه، وذهب العُجْب، والكبر، والخيلاء من قلبه.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

ولما أتته الوفاة أعطىٰ هذا التَّاجر خاتمه وقال: أنا ابن الخليفة المأمون فإذا متُّ فغسلني وكفني واقبرني ثم سلِّم هذا الخاتم لأبي.

فغسَّله، وكفَّنه، وصلَّى عليه، ودفنه وأتىٰ بالخاتم إلى المأمون.

وكان قد ظنَّ أن ابنه قُتِل في مكان أو فُقِدَ أو ذهب على وجهه

في مكان لا يدري عنه. فلما رأىٰ الخاتم شهق وبكىٰ حتى ارتفع صوته، فسألَ التاجر عنه.

فقال له الخبر.

فارتفع صوت الأمير الخليفة والوزراء بالبكاء، وعرفوا أنه عرف الطريق لكنهم ما مشوا معه في الطريق ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

هذه قصة من قصص التاريخ، أُثبتت وحُفِظت ونُقلت لمن كان له قلب، أو أَلقىٰ السمع وهو شهيد.

فهل من عاقل؟

وهل متدبِّر كتاب الله؟

وهل من فطن يعلم أن السعادة في السجود لله؟ وفي تلاوة كتاب الله؟ وفي ذكر الله؟

فوالله ليست السعادة في الدور ولا في القصور، ولا في الحدائق.

ألا رُبَّ ذي طمرين في جنة غدث
حدائقه ملتفة ونمارقه
قد اضطردت أنواره حول قصره
يُنعم والتفت عليه حدائقه

فكم من نعيم للمساكين عند الله؟

وكم من سعادة للعارفين بالله؟

وكم من شكوى لمن جعل حياته هذه الحياة الدنيا؟ فقدَّم المعاصي والشهوات فما كفَّ بصره ولا ردَّ سمعه، ولا حفظ لسانه، ولا فرجه، ولا بطنه، فعندها يندم يوم لا ينفع الندم ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا

فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وأما **جُليبيب** فهو أحد الفقراء المساكين من الصحابة، فليست له أسرة معروفة وما عنده جسم بهي جميل، وليس عنده مال، ولا يمتلك منصباً يديره، أتىٰ إلى الرسول ﷺ في ثياب ممزَّقة وفي هيئة الله أعلم بها، بطنه جائع، وكبده ظمأىٰ، وأعضاؤه هزيلة، ووجهه شاحب.

فقال له ﷺ: «**يا جليبيب: ألا تتزوج**»؟

قال: يا رسول الله: غفر الله لك ومن يزوِّجني؟

لا جمال، ولا مال.

لأنَّ كثيراً من الناس لا يزوِّج إلا على الدراهم والدنانير، فهو يزوج الرجل إذا رأى عنده ممتلكات وسيارات، وشاحنات، وناقلات، وقصور، فيبيع ابنته لذلك الرجل بيعاً، كما تُباع الناقة والسيارة في السوق، ولا ينظر إلى دين ذاك الرجل ولا إلى صلاته ولا إلى فكره.

فقال ﷺ لجُليبيب: «**اذهب إلى بيت فلان من الأنصار، وقلْ لهم: رسول الله ﷺ يبلغكم السلام، ويقول: زوِّجوني بنتكم**».

فذهبَ فطرقَ الباب.

قال أهل البيت: مَنْ؟

قال: جُليبيب.

قالوا: ما لنا ولك يا جليبيب؟

فخرج الأب وقال: ماذا تريد؟

قال: الرسول ﷺ يبلغكم السلام، ويقول: زوِّجوني بنتكم.

فقال الوالد: الله المستعان.. لأنه يعرف أن جليبيباً فقير.

فأخبرَ امرأته فقالت: الله المستعان! لو كان غير جُليبيب.

فاجتمعا على أن يردَّاه ويرفضاه.

فسمعتْ البنت العابدة الصالحة الناصحة ما يدور، فقالت: أتردَّان أمر الرسول ﷺ عليه؟ لا والله.

فوافقوا وتمَّ الزواج.

فنشأ البيت بيتاً أساسه على الخير ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أفمن أدخلَ ابنته بيتاً مسلماً تالياً لكتاب الله مستقيماً ذاكراً لله خيرٌ أم من أدخل ابنته بيتاً مغنياً، متبرجاً، فاحشاً ضالاً، ظالماً؟

وعاشت هذه المرأة في سعادة وأنجبت أطفالاً كانوا مشاعل في التاريخ وعلماء ودعاة.

فخاض الرسول ﷺ غزوة من الغزوات وبعد القتال سألَ الصحابة: «**من تفقدون من الناس**»؟

قالوا: نفقد فلاناً وفلاناً.

قال: «**ومن**»؟

قالوا: ما نفقد أحداً؟

قال: «**لكني أفقد جليبيباً**»؟

فأخذوا يبحثون عنه فوجدوه مقتولاً بجانب سيفه رضي الله عنه.

فمسح ﷺ التراب عن وجهه، وقبَّل وجهه، وبكىٰ وقال: «**أنت مني وأنا منك**»[1].

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحىٰ
نوراً ومن فلك الصباح عموداً

فهنيئاً لجليبيب، وهنيئاً للصادقين، وهنيئاً للمخلصين، وهنيئاً للسائرين إلى الله.

وقبحاً للمتخلفين عن ركب النجاة وحسرة على الضائعين الضالين، الخارجين عن الله، الذين غلَّبوا هذه الدنيا التي لا تساوي جناح بعوضة ونسوا حظهم من الآخرة.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❀ ❀ ❀

(١) رواه مسلم.

لقد خلقنا الإنسان في كَبَد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

قضية الإنسان في القرآن قضية كبرى.

والله عز وجل يلاحق حياة الإنسان قبل أن تَحْمل به أمه، وقبل أن يكون نطفة، وقبل أن تضعه أمه على الأرض طفلاً، ثم شاباً قوياً، ثم رجلاً، ثم كهلاً، ثم أشيباً، ثم ينتقل إلى الله.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

هذا هو الميثاق الغليظ الذي أخذه الله على الناس وهم في صلب أبيهم آدم فدلَّهم على التوحيد وقال لهم: من هو ربكم؟ من هو إلهكم؟ من هو القادر الذي يخلقكم؟ من هو الذي يستحق العبادة؟

ثم تحمل أم الإنسان بالإنسان، فإذا الله يتحدَّث عنه وهو في بطن أمه ضاحكاً أو ساكتاً.. نائماً أو مستيقظاً.

فيقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، ويقول سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾.

ثم تلده أمه باكياً.. وكل الناس يولدون يبكون من طعنة الشيطان التي يطعن بها ابن آدم عند خروجه من بطن أمه إلا عيسى ابن مريم فما بكى لأن الله حفظه بدعاء أم مريم عندما قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

أما نحن فبكينا عندما أتت بنا أمهاتنا. قال بعض الفلاسفة: يبكي الإنسان لأنه خرج من السعة إلى الضيق أي المعنوي.

وقال آخر: بكى الإنسان من هول الابتلاء ومن عظم المشقة التي سوف يجدها من الضيق والهم والغم والحزن.

وقال آخر: بكى الإنسان لأنه سوف يرى التكاليف أمام عينه، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أبكم أصم أعمى لا يأكل ولا يشرب ولا ينطق، فتولاه الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً   والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا   في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

يقول ﷺ في صحيح مسلم: «**كل مولود يولد على الفطرة**»، أي فطرة الله فلا يولد مغنياً مطبِّلاً ماجناً لاهياً.

لا.. بل يولد على لا إله إلا الله. ويرفع رأسه على لا إله إلا الله محمد رسول الله.

يقول سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لكن من بدَّل خلق الله؟

إنهم العملاء.

إنهم الخونة.

إنهم أعداء الإسلام الذين بدَّلوا حال الإنسان.

بدَّلوه من مؤمن متقي إلى ضال شقي.

ومن عبد صالح إلى عبد طالح ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾، لكن! ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، كقلوب الحيوانات تماماً، يحفظون ويقرأون ويدرسون لكن يفقهون كل شيء إلا الدين، ويفهمون كل شيء إلا الإسلام، ويعرفون كل شيء إلا القرآن والسنة، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

ويقع الإنسان فيتناوله الإسلام بتعاليمه وسننه ويطلب من والديه أن يؤذِّنا في أذنه لينشأ على عبادة الله وعلى ذكر الله.

وقد أذَّن ﷺ في أذن ابن ابنته الحسن رضي الله عنه، رواه أبو داود.

فقال: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، حتى أكمل الأذان.

لكن لما أتت التربية المعكوسة، وولد الابن على الموسيقى الإيطالية، ونشأ على المجلات والسهرات والمعاصي.. خرج ابناً لاهياً عاصياً عاقاً لوالديه.

يقول تعالى للإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ من الذي خدعك؟ إنهم أولئك الطُّغمة الفاجرة والجلساء السيؤون الذين صرفوك عن منهج الله.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾.

أتى العاص بن وائل السهمي إلى رسول الله ﷺ بعظم قديم وفتّته في يده وقال: يا محمد أتزعم أن ربك يعيد هذا العظم؟

لأن الرسول ﷺ أتى للناس ليقول لهم: إن هناك حساباً، وإن هناك عقاباً، وإن هناك يوماً آخر، وإن هناك مصيراً محتوماً نقف كلنا أمام الله فيه.

قال: أتزعم أن ربك يعيد هذا؟

قال الرسول ﷺ: «**نعم يعيده ويدخلك النار!**»

وفي الجواب زيادة (ويدخلك النار) لأنه تافه حقير.

فبعض الناس حقير ولو كان عظيماً في عيون الناس، لكن كل من انحرف عن منهج الله فهو حقير ذليل صغير.

فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾، قال الله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

إنك أيها المجرم لو نظرت إلى خلقك وأنت نطفة، ثم تنقَّلت من حال الضعف إلى حال القوة، ومن حال القوة إلى الضعف، ثم متّ، لعلمت أن الله قادر على تلك الأحوال مرة ثانية.

ثم يطلب منا ﷺ أن نحسن من أسماء أولادنا بعد أن يقدموا إلى هذه الدنيا فيقول: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسِّنوا أسماءكم**»(١) أو كما قال.

فواجب علينا أن نختار لأبنائنا الاسم الجميل اللامع القوي

---

(١) رواه أحمد (١٩٤/٥)، وأبو داود (٤٩٤٨).

الإسلامي، كعبدالله وعبدالرحمٰن وأحمد ومحمد، ونجتنب الأسماء الدخيلة التي ميّعت الجيل والنشء الجديد وشابهت بينه وبين أعدائه.

ويصل الطفل إلى السابعة فيقول ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع**»(١).

ويصل إلى الأربعين فإذا الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ فالأربعون تمام العقل وتمام القوة وتمام الإرادة والعزيمة.

يقول بعض العلماء: إذا بلغ ابنك الأربعين ولم يهتد فاغسل يديك منه لأن الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ ...﴾ الآية.

ويستمر القرآن مع الإنسان فإذا شيبه قد أنذره.

قال ابن عباس وهو يقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ قال: النذير هو الشيب.

من شاب رأسه أو شابت لحيته ثم لم يكن له رادع ولم يكن له منذر وواعظ فاعلم أنه رجل مخذول.

يقول الإمام أحمد إمام أهل السنة لما رأى الشيب في لحيته في المرآة: والله ما وصفت الشباب إلا كشيء كان في يدي ثم سقط.

يقول أبو العتاهية:

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بم فعل المشيب

أتدرون ماذا فعل المشيب؟

---

(١) رواه أحمد (٢/١٨٠)، وأبو داود، وحسنه الألباني في المشكاة (٥٧٢).

سيخبركم الذين في السبعين والثمانين من الذين كلّت أبصارهم، وضعفت أسماعهم، واحدودبت ظهورهم، وملّوا الحياة.. لا نوم ولا هدوء ولا لذة للطعام ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾.

ومن نعمّره في الحياة نعيده فيصبح عقله كالطفل، وإدراكه كإدراك الطفل، وفهمه كفهم الطفل ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

يقول أحد الشعراء:

إن الرجال ولدت أولادها وأخذت أسقامها تعتادها
وكثرت من مرض عوادها فهي زروع قد دنا حصادها

أي: إذا أتى لأولادك أولاد وأصبحت جداً فانتظر الموت، وانتظر لقاء الله.

قال سفيان الثوري: من بلغ الستين فليشترِ كفناً.

كان قيس بن عاصم المنقري سيد بني تميم عنده عشرة أبناء، فبلغ في الكبر عتياً، فنام مرة عند أولاده عندما بلغ الثمانين من عمره فكان طوال الليل يسعل ويئن ويتألم.

فقال له أبناؤه: لقد أزعجتنا فلم ننم.

فنظم قصيدة قال فيها:

قالوا أنينك طول الليل يزعجنا
فما الذي تشتكي قلت الثمانينا

ثم يأتي الختام فإذا هو العمل الصالح دون غيره مما يبقى في هذه الدنيا ولا يرحل معنا.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾.

ويأتي الإسلام ليقول للإنسان: إذا أتتك سكرات الموت فاحرص على أن تموت على لا إله إلا الله.

يقول ﷺ: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**»[1].

لكن لا يثبت على لا إله إلا الله إلا المؤمن.

ولا يقولها في سكرات الموت إلا المؤمن ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

ذكر الذهبي المحدِّث الكبير أن أبا زرعة المحدث رحمه الله حضرته سكرات الموت فأُغمي عليه، فأراد تلاميذه أن يذكروه بلا إله إلا الله وهو مغمى عليه ولكن استحيوا أن يقولوا له: قل لا إله إلا الله لأنه إمام المسلمين.

فقالوا: نتذكر سند حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله.. فإذا ذكّرناه بالسند سوف يتذكر المتن هو لأنه محدِّث.

فقال أحد التلاميذ: حدثنا فلان بن فلان.

فاستيقظ فسمع السند، ولكن هم كانوا من هول المصيبة وهول الكارثة قد نسوا السند فأخطأوا فيه.

فقال: حدثنا الربيع بن سليمان، قال: حدثنا فلان، قال: حدثنا فلان عن معاذ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**» ثم مات! هذه كرامة الأولياء.

(١) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح الإسناد.

وأما غيرهم فإنهم يموتون على ما عاشوا عليه من الخنا والفجور.

قيل لسفيه معربِد وهو في سكرات الموت: قل لا إله إلا الله.

فقال: أين الطريق إلى حمام منجابي!

فمات عليها لأنه عاش عليها.. ومن شبَّ على شيء شاب عليه ومات عليه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾.

يقول أحد العلماء وذكره ابن تيمية في (درء تعارض العقل والنقل) يخاطب الله:

وحقك لو أدخلتني النار لقلت ... للذين بها قد كنت ممن أحبه
وأفنيت جسمي في علوم كثيرة ... وما منيتي إلا رضاه وقربه
أما قلتموا من كان فينا مجاهداً ... سيحمد مثواه ويحسن شربه

ثم يكون البعث بعد الموت ليحاسب الله هذا العبد والإنسان الذي خلقه في كَبَدٍ وابتلاه بسائر المصائب والمحن والنعم.

ولكن أهل الماديات لا يفهمون هذا ولا يؤمنون به، فمن أصولهم التي يدرِّسونها لطلابهم ولتلاميذهم وقد كادت أن تصل إلينا قولهم بأن المادة قديمة لا تفنى ولا تبيد ولا تعود، وهذه نظرية كافرة أتى بها الكفرة.

بل الله يفني ما يشاء من المواد ويبقي ما يشاء، فله الحكم وحده.

ولكن مقصودهم من هذا أن الإنسان إذا مات أنه لا يعود كما كان وإنما يتحول لمادة أخرى وهكذا غيره.

فجاء الإسلام ليقرِّر حقيقة البعث ويركز عليها لكي لا تزل العقول إلى تلكم النظريات الفلسفية الكاذبة.

فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾.

فيا عباد الله.. استعدُّوا للموت وللبعث بعد الموت، فأنتم لا زلتم في تنقلات هذه الحياة ولا زلتم في أطوارها السابقة، فبادروا بالتوبة قبل أن تفوتكم ويسبقكم الوقت.

أيها المسلمون من هذه الموعظة السابقة نأخذ دروساً مفيدة لنا:

أولًا: أن الإسلام معك منذ وجودك في بطن أمك إلى أن تدخل الجنة أو النار، نعوذ بالله من النار.

فهو يسير معك في جميع أطوارك وتنقلاتك، ويُبصرك بحاجاتك وبمهماتك.

ثانياً: أنك لم تخلق هملاً بل خلقت لغاية عظمى وهي عبادته سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فواجب عليك وقد هيأك الله لأسباب تلك العبادة أن تقوم بها دون تواني أو كسل.

قد هيؤك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ثالثاً: أن الذي لا يسير مع الوحي الربَّاني فقد سفِه نفسه، لأنه اختار المناهج الأرضية وترك منهج رب الأرض والسماء.

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾.

رابعاً: أننا لسنا في حاجة لأي مبدأ وقانون غير الإسلام وغير رسالة محمد ﷺ.

فلنعد إلى القرآن والسنة لنهتدي بنورهما في هذه الدنيا وأمام هذه الابتلاءات والكبد الذي خلقنا الله فيه.

فمن اعتقد أنه سيهتدي بغير هدى الله فهو ضال مضل قد صرفه الله عن الهداية وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❋ ❋ ❋

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أيها المسلمون آيات الله في كتاب الكون كثيرة.. فالله يحدثنا عن نفسه بآياته.. بالليل والنهار.. بالسماء والأرض.. وبالماء والضياء.. بالأشعار والأنهار.

فهل قرأنا كتاب الكون؟

وهل تدبَّرنا آيات الله؟

وكتاب الفضاء أقرأ فيه   سوراً ما قرأتها في كتابي

أتى رجل من الصالحين قبل زمن قصير بورقة نخلة إلى عالم من العلماء لا يزال حياً مكتوب على هذه الورقة لفظ (الله) بالخط العربي الكوفي الجميل.

سخّرها الله لتكتب اسمه لتقول بلسان حالها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
من شادها من بذرة	حتى استقامت شجرة
انظر إلى النحلة	في بستانها منقعرة
من الذي علمها	مصَّ رحيق الثمرة
انظر إلى الليل غفى	من هزّه وأظهره
انظر إلى لوح الكون	من زانه وسطَّره
انظر إلى الأموات من	يحييهم من مقبره
ذاك هو الله	الذي أنعُمَه مُنْهَمِرة

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

من الذي يتدبر؟

من الذي يقرأ كتاب الكون؟ هل هو المغنِّي، أم المطرب، أم المزمّر، أم الضائع.. صاحب المخدِّرات.. عبدُ الأغنيات.

لا..

الذي يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه هو الذي يقرأ كتاب الكون ويتأمل في أسرار الحياة.

وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد
فيا عجباً كيف يُعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد

فرعون علم أن لا صانع إلا الله.. ولا مدبّر إلا الله.. ولا رازق

إلا الله.. ولكنه كفر بلسانه فقال موسى له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

يقول الكاتب الأمريكي صاحب كتاب (الإنسان لا يقوم وحده): تأملت النحلة كيف تذهب آلاف الأميال من خليتها ثم تعود من وراء البحار والقفار فلا تخطىء وتأوي إلى خلية غير خليتها.. من الذي دلها وقادها؟ من الذي علمها؟ كأن عندها جهاز أريل يطلق ذبذبات.

فقال له علماء الإسلام: إن الله يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وأوحى أي ألهم.

فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فيا مسلمون! أقبل الكفار اليوم المخترعون يؤمنون ويدخلون في هذا الدين.. وأخذ بعض شبابنا ينسحب من هذا الدين، فسبحان الله!

مؤلفو كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ثمانية أمريكان.. كل منهم قد أتى بحقيقة تثبت وجود الله، وعظمة الله، وكبرياء الله.

نزل أحدهم في سفينة أبحرت في المحيط الأطلنطي فأصبحوا في ظلام الليل.. وفي ظلام اليم، وفجأة انقطع جهاز الإرسال عن السفينة فانقطعوا عن البر والبحر والجو والجبال والوهاد ولم يبقَ إلا الاتصال بالله.

يقول الأمريكي الذي يروي القصة: فلما أبحرنا أظلمت بنا الدنيا، فحاولنا الاتصال فما وُفِّقنا وفشلنا، فانقطع اتصال الإرسال وفي الأخير اتصلت قلوبنا بالله!

يقول الله عن كفار قريش وعن كل مشرك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: إذا هاجت الريح وإذا تلاعبت بالسفينة الأمواج انقطعت اتصالاتهم بالناس واتصلوا بالله.. مثلما فعل يونس بن متى عليه السلام انقطع اتصاله بالناس وأصبح في ظلمات ثلاث: ظلمة

اليم، وظلمة الحوت، وظلمة الليل. فقال في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأنجاه الله.

قال الأمريكي: فأخذنا نناجي الله.

فنجَّاهم الله إلى البر.. وأخيراً أعلنوا إسلامهم وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

آخر النظريات التي اكتشفها أحد الروس أن للنبات ذبذبات يطلقها على النبات الآخر.. وللحشرات، وأن هذا دليل على قوة عظمى ليست في قوة البشر!

قلنا له: يا ملحد إنها قوة رب البشر.. لا إله إلا الله ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾.

سبحان الله! من أعطى حيوانات ودواب القطبين فراءً.. وأعطى حيوانات الصحراء أربع أرجل.. وأعطى الطير في السماء أجنحة.. وأعطى السمك في الماء مجاديف؟

فما أحكمه.. وما أعظمه.. وما أقدره.

فيا إخواني.. هذا الشعور ينبغي أن يتحوَّل إلى إيمان وعمل.. لا إلى مجرد علم.. قال الله عن الكفار: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

فهذه النصوص والأحداث التي سمعتم إذا لم يُستفد منها العمل فلا فائدة منها.

وتخزين العلم في الذهن دون خشية الله والإيمان به والعمل بمرضاته، إنما يُكتب عليك حجة تلقى بها الله.

والذي نستفيده من هذه الأصول والأسس والآيات البيِّنات في الكون والاكتشافات العلمية ثلاث فوائد:

أولها: مطالعة أسماء الله وصفاته في الكون ليتضح أن الله حكيم مدبِّر خالق رازق، أحسن كل شيء خلقه، لا تجد في خلقه تفاوت ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

فكل شيء يدلك على الله.. انظر إلى جسمك.. انظر إلى حركاتك وإلى كلماتك.. انظر إلى اندفاعاتك ومشاعرك وخواطرك، فأنت عالم من العوالم وأنت كون وفيك اختفى الكون الأكبر، فلماذا لا تتفكر في نفسك فتكون عبداً لله ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فأول فائدة لنا هي: مطالعة أسماء الله في الكون وصفاته.. فإذا رأينا الزهرة الحمراء تفكرنا في من صبغها ولوّنها وجمّلها.

الفائدة الثانية: أن يتحول هذا الشعور وهذا الإدراك.. وهذا الفهم إلى إيمان.

فلا يكفي أن تعرف أن من خلق الزهرة هو الله.. ولكنْ لا تصلي ولا تزكي ولا تسبّح ولا تذكر الله لأن المخترع الكافر يعرف أن هذا صنع الله لكنه ما آمن بالله.

الفائدة الثالثة: أن تذكر الله بآياته، فتنظر إلى كتاب الكون الذي عرضه الله لك وتذكره سبحانه وتعالى.

تنظر إلى الشجرة فتقول: سبحان الله!

وإلى الجبل فتقول: سبحان الله!

وإلى الماء، وإلى الضياء، وإلى الأرض، وإلى السماء، وإلى الجبال، وإلى الوهاد، فتقول: سبحان الله!

نزل القرآن على محمد ﷺ فكان أول سورة نزلت هي (اقرأ)،

وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾، لكنه ﷺ كان يخرج إلى غار حراء ويُخرج رأسه من الغار ليقرأ في صحيفة الكون، فيقرأ في النجوم الساطعة، وفي الشمس الطالعة، وفي الوهاد، وفي الماء النمير، وفي الجدول والغدير، وفي الأنهار والأشجار، فيقرأ كل هذه الأشياء. ولذلك قال أهل العلم في الآية (اقرأ) أي: اقرأ الكون بما يوجد فيه لتعرف الله تعالى.

فلا يكن أحدنا غافلاً عن هذه الآيات العظيمة إذا خرج إلى نزهة أو إلى بريّة ينظر إلى أعمال البشر الحقيرة ويدع عمل وصنع رب البشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

فنسأل الله أن يقينا من النار وأن يجعلنا ممّن يتفكر في أنفسنا وفي آيات الله العظام.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❊ ❊ ❊

أنفاسك الغالية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.

دقـــات قـــلـــب الـــمـــرء قـــائـــلـــة لـــه
أن الـــحـــيـــاة دقـــائـــق وثـــوانـــي
فـــارفـــع لـــنـــفـــســـك قـــبـــل مـــوتـــك ذكـــرهـــا
فـــالـــذكـــر لـــلإنـــســـان عـــمـــر ثـــانـــي

أيها الناس ودَّعنا عاماً قد انصرم واستقبلنا عاماً قد قَدُم.

ودَّعنا عاماً ذهب بحسناته وسيئاته، نسينا ما فعلنا فيه، ولكن والله علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

غفلنا عما فعلنا، ولكن ما غفل الله عنا: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾، فما فات كتاب الله حسنة ولا سيئة.

نعم! ودَّعنا عاماً منصرماً.. عاماً ذهب كأنه لمح البصر، ولكن هيهات، ما ذهب من علم الله، وما ذهب من حساب الله، وما ذهب من اطّلاع الله.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ كم تهنأتم؟ كم أكلتم؟ كم شربتم؟.

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

ولقد ذكر الله عز وجل منّته بالوقت والعمر على الناس، فقال عز من قائل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾ أي: أولم نمهلكم؟ أولم نترككم؟

وذكر الله عز وجل قوماً فأنكر عليهم؛ لأنهم اتخذوا حياتهم لهواً ولعباً وعبثاً وسدى وتفلتاً على شرع الله وتعدٍّ على حدوده، فقالوا في ساعة الندم: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

وذكر الله عز وجل أن الشمس والقمر بحسبان، فهي لا تسير إلا بوقت وبقدر مقدر، وبلحظات محسوبة عند الله، وبآجال مضروبة.

فيا من أنهى عامه: أما بحثت عن عامك ماذا فعلت فيه؟

أما تذكرت حسناتك وسيئاتك؟

والله لتوقفن غداً عند من لا تخفى عليه خافية.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾. فالحسنات ظاهرة، والسيئات شاهرة، لا يخفى على الله شيء؛ لأنه يعلم السر وأخفى. فهو يقول للعبد وهو يحاسبه: فعلت يوم كذا وكذا.. كذا وكذا.

يا عباد الله، عام انصرم عبث فيه العابثون وأجاد فيه المخلصون.

أما الصالحون فاتخذوا أجلّ الحسنات، وأما المبطلون فكنزوا أقبح السيئات، فسوف يرى كلٌّ بضاعته (يوم يبعثر ما في القبور ويحصَّل ما في الصدور)، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾.

كان أحفظ الناس لوقته هو رسول الله ﷺ؛ فقد كان يحفظ دقائقه وثوانيه مع الله، فكل لحظة تمر به لا تخلو من عمل صالح يُرفع إلى الواحد الأحد.

يقول ابن القيم في كلام ما معناه: كان كلامه ﷺ ذكراً لربه وفعله ذكراً، وحركاته وسكناته، وليله ونهاره، وحلّه وترحاله، وكل لحظة في حياته ذكراً لله الواحد الأحد، بل كان يقول كما عند البخاري: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»؛ لأنهم يضيِّعونها في المعاصي وفي الشهوات، وفي المخالفات، وفي سماع الأغنيات التي تغضب رب الأرض والسموات.

وكان ﷺ يقول: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحَّتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك**» رواه الترمذي بسند حسن.

فيا من أذهب لياليه وأيامه في الهَذَيان، وفي مخالفة الواحد الديّان، وفي إغضاب الرحمٰن، وفي الطغيان والعصيان والعدوان، أمامك عام جديد أتى يقول لك: يا ابن آدم اغتنمني في الحسنات، فوالذي نفسي بيده لئن ذهبت عنك لا أعود أبداً.

ولذلك تواصى الصالحون بحفظ العمر وبحفظ الأوقات.

كان الربيع بن خيثم يكتب كلامه من الجمعة إلى الجمعة ويحاسب نفسه مساء كل سبت.

لا إله إلا الله! ليته يدري أن من الناس من يرتكب في اليوم الواحد خطايا كالجبال وهو يضحك ولا يكتبها ولا يتذكرها ولا يدري بها، ولكن علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

قال أحد الصالحين لنفسه: يا نفس كم تنامين، والله لتنامين في القبر نومة طويلة.

أتيت القبور فناديتها أين المعظم والمحتقَر
تفانوا جميعاً فما مخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما مضى معتَبر

قيل لسفيان الثوري: اجلس معنا نتحدث.

قال: كيف نتحدث والنهار يعمل عمله.. ما طلعت الشمس إلا كانت شاهدة على العباد بما فعلوا.

ولذلك قيل لكرز بن وبرة: ألا تجلس معنا؟

فقال: احبسوا الشمس!

ومن يحبس الشمس؟ ألا ترى الليل والنهار كيف يمرّان في صرم الأعمار؟

ألا ترى أن الدقائق والثواني لا تعود؟

ألا ترى أن الشمس إذا ذهبت فغربت لا يمكن أن تأتي هذا اليوم؟

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

ولذلك شكى وبكى الصالحون والطالحون ضياع العمر، وبكى الأخيار والفجّار انصرام الأوقات.

فأما الأخيار فبكوا وندموا على أنهم ما تزوّدوا أكثر.

وأما الفجّار فتأسفوا على ما فعلوا في الأيام الخالية.

قال أهل السير: حضرت الوفاة نوح عليه السلام، فقيل له: يا نوح كم عشت؟

قال: ألف سنة.

قالوا: كيف وجدت الحياة؟

قال: والذي نفسي بيده ما وجدت الحياة إلا كبيت له بابان، دخلت من هذا الباب وخرجت من هذا الباب.

فيا ابن الستين والسبعين، أنت ما عشت ألف سنة فكيف تصرف الستين والسبعين في معاصي الله؟ وفي انتهاك حدود الله؟ وفي التجرؤ على حُرمات الله؟

وذكروا عن الجنيد بن محمد أن الوفاة حضرته فأخذ يقرأ القرآن وهو في سكرات الموت ويبكي.

قالوا له: تقرأ القرآن وأنت في سكرات الموت؟

قال: سبحان الله من أحوج مني بقراءة القرآن؟ وقد أصبحت لحظاتي تُعَد علي. أو كما قال.

وندم كثير من المفرِّطين يوم أتتهم سكرات الموت.

قال الذهبي: أتت سكرات الموت عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي فأخذ يتجرَّع كأس الموت ويذوقه، فسمع غسّالاً بجانب قصره في الوادي يغسل ملابسه وينشد أناشيده وما علم الغسَّال بموت عبدالملك.

فأخذ عبدالملك يقول وهو يبكي: يا ليتني كنت غسَّالاً، يا ليتني ما عرفت الخلافة، يا ليتني ما توليت الملك.

قال سعيد بن المسيب لما بلغته هذه الكلمات: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا وقت الموت ولا نفر إليهم.

وأما ابنه الوليد بن عبدالملك ولي العهد فإنه لما حضرته الوفاة نزل من على كرسي الملك ومَرّغ وجهه بالتراب وندم وتلبَّط بالحصى وأخذ يبكي ويقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩)﴾.

وأما هارون الرشيد الذي ملك الدنيا من إسبانيا إلى السند، وطشقند إلى جنوب أفريقيا فإنه بنى قصره قبل أن يموت بليالٍ، فقال للشعراء: امدحوا القصر وصاحب القصر.

فدخل عليه أبو العتاهية الواعظ الزاهد فقال: يا هارون نظمت فيك وفي قصرك أبياتاً.

قال: ماذا قلت؟

قال: قلت:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور

قال: هيه (يعني زد).

قال:

يُجرى عليك بما أردت ... مع الغدو مع البكور

قال: هيه.

قال:

فإذا النفوس تغرغرت ... بزفير حشرجة الصدور

فـهـنـاك تـعـلـم مـوقـنـاً ما كـنـت إلا فـي غـرور

فبكى ونزل من على كرسيه، وما لبث أياماً إلا وقد فاجأه الموت، فأخذ يتلفَّت في كتائب الجيش وفي الحرس وفي الأمراء وفي الوزراء وأخذ يرفع طرفه إلى السماء ويقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه.

عباد الله.. قد نبتت نابتة في الأمة الإسلامية شباباً وشيباً عاشوا العصر المنصرم في الضياع، وصرفوه في المعصية، ودفعوه ثمناً باهظاً وتكاليفاً ضخمة بغضب من الله عز وجل.

أما ليلهم ـ إلا من رحم ربك ـ ففي سهرٍ لا ينفع، فسهره موصول بالفجر وفي ليالٍ حمراء، وفي لعب بلوت، أو في غيبة ونميمة، أو في شهادة زور أو في مقاهي.

وإنا ندعوهم في أول هذا العام أن يجدِّدوا توبتهم وأن يعودوا إلى مسيرة ربهم وأن ينهجوا سنَّة نبيهم ﷺ، ونقول لأنفسنا ولهم: لقد أقبل العام ودخل العام الهجري، فاستبدلوه بتوبة نصوحة لله عز وجل القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

ولـمـا قـسـا قـلـبـي وضـاقـت مـذاهـبـي
جـعـلـت الـرجـا ربـي لـعـفـوك سُـلَّـمـا
تـعـاظـمـنـي ذنـبـي فـلـمـا قـرنـتـه
بـعـفـوك ربـي صـار عـفـوك أعـظـمـا

عباد الله.. لقد انقسم الناس في العام الماضي إلى قسمين في كل جنس منهم: فالعلماء انقسموا إلى طائفتين، فمنهم من خاف الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأنفق مما أعطاه الله من العلم فجزاؤه أن يلحقه الله بالنبيين والمرسَلين وأن يتبوأ مقعد الصادقين يوم العرض الأكبر.

وعالم اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً من الدنيا، فكتم ما آتاه الله وجحد نعمة الله، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

هذا العالم شرى بآيات الله ثمناً قليلاً من حب الدنيا ومن مفاتنها ومن التهتك في شهواتها ومن الارتشاء.

فآن له أن يتوب على مطلع العام الهجري الذي استهلَّ أيامه قبل أيام.

وانقسم المسؤولون إلى قسمين:

مسؤولٌ خاف الله وأعدَّ ليوم العرض الأكبر، وعلم أن أحكم الحاكمين هو الله الذي لا يعذِّب عذابه أحد، ولا يوثِق وثاقه أحد، والذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فراقب الله في وظيفته وفي عمله، فإن حكم حكم بالعدل، وإن عمل عمل بالنصح فهو صادق.

وأجره على الله الواحد الأحد.

ومسؤولٌ خان الله في رسالته، وغشّ الله في معاملته، واتخذ وظيفته ومنصبه حرباً لأولياء الله وحرباً لدين الله، فجزاؤه أن يحشر مع فرعون ومع أبيّ بن خلف وأمثالهم وأضرابهم: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

وانقسم الشباب إلى قسمين:

شاب عكَفَ على القرآن فاستجلى معانيه ونزل إلى ميادينه وهبط في أوديته، فتدبر معانيه واسترضع ثديه، واستحكم أحكامه، ورشف رحيقه، وتلبّس بلباسه.

فقام به فتهجّد في الليل، وعمل به في النهار، ونشره في الناس، ووقف عند حدوده، وتعلّم من علومه، ودرس دروسه.

فهذا شاب ناصح مفلح، جعل المسجد مُصَلاَّه وحديقته وبستانه، فالتقى بإخوانه الشباب.

هذا الشاب تجمّل بالسنّة على ظاهره، فتشرّف بسنة محمد ﷺ، فأسكن سنة الحبيب قلبه وعينه وسمعه ولحيته ولباسه، فكان أحب الناس إليه محمد ﷺ.

فكأن لسان حاله يقول:

نسينا في ودادك كل غالٍ ... فأنت اليوم أغلى ما لدينا
نلام على محبتكم ويكفي ... لنا شرف نلام وما علينا
ولما نلقكم لكن شوقاً ... يذكرنا فكيف إذا التقينا
تسلى الناس بالدنيا وإنّا ... لعمرو الله بعدك ما سلينا

هذا الشاب جعل من كتب السنة موصلاً ومنهجاً وسيرة وقدوة ونبراساً.

هذا الشاب داعية في مجتمعه. أكثر الله من أمثاله.

وشابٌ آخر، صرف أوقاته في اللهو والعبث، فمسجده المقهى وسواكه السيجارة، ومصحفه المجلة الخليعة، وتلاوته الأغنية الماجنة.

إذا سافر الأخيار لمكة للحج أو للعمرة سافر إلى بلاد الكفر للمعصية والزنا والفاحشة.

إذا أتى الشباب إلى المساجد خرج إلى مساجد الشيطان المقاهي.

إذا قرأ الشباب القرآن وبكوا من آيات القرآن وتأثروا من عبر الواحد الديان، أخذ مجلة خليعة.

إذا عكف الشباب على الدعوة وعلى تدارس العلم، عكف على ما يمليه الشيطان وأذناب الشيطان.

وانقسم الشيوخ قسمين:

شيخ اقترب من القبر.. اقترب من الستين فلبس كفنه وعرف أنه أصبح من الموت قاب قوسين أو أدنى، فأكثر من الاستغفار وتصدّق وحبس لسانه عن الفاحشة والغيبة والنميمة وشهادة الزور. وأقبل يجدد توبته ويستعد للموت، فكان الموت يلازمه صباح مساء.

وشيخ آخر، نسي الله في شيخوخته فأصبح أشيمط يرتكب المحرمات، همه شهادة الزور، لا يعرف الذكر، وهمه المشاكل وإحداث الفتن بين الأُسر والقبائل، وجلب الأموال من غير حلّها، والخوض في الربا، وانعدام الحياء من الله، وقد أتاه النذير.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، قال ابن عباس: النذير هو الشيب.

هذه الأجناس هي أقسام الناس في العام المنصرم والعام الذي قبله، فنسأل الله أن يُصلح الحال وأن يتوب على المسلمين ويردهم إليه رداً جميلاً.

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

❁ ❁ ❁

فاتَّخِذوه عدوّاً

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسَلين.

إن للشيطان مع الإنسان قصة بدأت منذ بداية الخليقة ولم تنته بعدُ، وستظل إلى قيام الساعة.

وهذه القصة هي قصة العداوة المتأصِّلة التي كانت بدايتها مع أبينا آدم عليه السلام واستمرت مع ذريته من بعده.

ولقد حذَّرنا الله ورسوله من الشيطان. وإنني من خلال هذه الأوراق سوف أقدم شيئاً موجزاً عن مكائد الشيطان، راجياً من الله تمام النفع بها وأن يجعلها في ميزاننا إنه على كل شيء قدير.

● تحذير الله رسوله من الشيطان:

لقد أنذرنا الله عداوة الشيطان، وأخبرنا أنه عدو لنا، وخوَّفنا من مصائده ومكائده، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فالشيطان قائد أوليائه إلى النار، والشيطان حقيقة مع كل إنسان إلا مع محمد ﷺ. ولقد اتضح من الأحاديث النبوية أنه يجري في الإنسان مجرى الدم. ولذلك وصفه ﷺ بهذا الوصف، وأخبر الرسول ﷺ أن كل إنسان معه قرين. قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: «**حتى أنا، ولكن الله أعانني عليه فأسلم**»[1].

قيل أسلم من الإسلام. وقيل أسلم فِعْل، أي أسلَمُ منه. والأول هو الصحيح، فقد أسلم شيطانه ﷺ.

والشيطان يَعِدُ الناس بالأماني الكاذبة، وقد وقف للطوائف والأجناس بالمرصاد.

فأما العلماء فأملى عليهم برنامجاً خاصاً خذل من خذل منهم وسلِم من سلِم منهم، فقال للعالِم لا تخرج إلى الناس فإنك إن خرجت شُغِلت بالشهرة والرياء والسمعة والتصدر للناس فحبسه في بيته، وسجنه في داره، فترك العالِمُ للشيطان المجال مفتوحاً وترك الميدان للضالين الغاوين. فاشتغل دعاة الضلالة وعلماء الجاهلية من فرق اليهودية، وأذناب العلمانية، فأخذوا الميدان دون المسلمين وكانت أكبر جرائم هذا العالِم أنه كتم العلم الذي في صدره. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

وأتى الشيطان إلى السلاطين فوعدهم مُلكاً عتيداً إذا سفكوا الدماء وأخذوا الأموال، وأخبرهم أن سلطانهم لا يقوم إلا على هذا، فغفلوا

---

(١) رواه مسلم.

عن السياسة الشرعية، وعطلوا الأوامر الإلهية، وأنكروا الأحكام التي أنزلها الله عز وجل وهي الأحكام القرآنية.

وأتى إلى الشباب فوعدهم بالأماني الكاذبة وقال اليوم خمر، وغداً أمر! شبابك شبابك اغتنمه في اللذات، فإنك إذا شبت تبت وعدت إلى الله!

فأصبح الشاب إلا من رحم ربك عبداً لنزواته وشهواته وسجيناً في حب الأغنية الماجنة، والعشق المُهْلِك، فأضبح شاباً ممسوخاً في مسلاخ الدابة، وفي مقام البهيمة، لا يعرف معروفاً، ولا يُنكِر منكراً.

صح عن (عبدالقادر الجيلاني) السنِّي الحنبلي أنه قال: إن الشيطان تصوَّر له في المنام في صورة هائلة في السماء فقال له الشيطان: يا عبدالقادر أنا ربك قد أحللتُ لك الحرام.

فقال عبدالقادر: كذبت يا عدو الله.. فأنت الشيطان، وإن الله لا يأمر بالفحشاء ولا يحل الحرام.

وتمثل الشيطان للإمام أحمد وهو في سكرات الموت فقال لأحمد وهو يعض على أصبعه: فُتّني يا أحمد.. فكم خدعت من رجلٍ إلا أنت.

فقال أحمد: لا.. بعدُ، لا.. بعدُ.. أي ما أمِنت مكرك للآن وما استأمنت لخداعك، وما استسلمت لقيادتك حتى نجى الله الإمام أحمد بالقول الثابت في الدنيا. فلقي ربه وهو على ذلك لم يتمكن الشيطان منه.

وأتى إلى «الصوفية» فأحدث لهم طُرقاً بِدْعية حتى أخرج الكثير منهم عن الملة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وأتى إلى الفقير فسخّطه على الله وعلى القضاء والقدر حتى كفر بسخطه في قضاء الله وقدره.

وأتى إلى الغني فأدخله النار، لأن الشيطان جعل همه الأول الدينار والدرهم، وجعله يتعدى ويظلم ويتجبر بماله وينسى الله عز وجل، وهذا من مكائده عليه لعنة الله.

● الآية الحافظة من الشيطان:

قال أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه: كلفني رسول الله ﷺ بحراسةِ تمر الصدقة في المدينة، فقمت على تمر الصدقة، فبينما أنا حارس.. وإذا برجل في صورة شيخ قد أقدم عليّ فأخذ يضم التمر ويحثو منه فأمسكت به، فشكى إليّ العيال وشكى إليّ الحاجة والفقر، فرحمته وأطلقته.

وفي الليلة الثانية أتى فحثى التمر، فأخذت بمجامع ثيابه، وأردت أن أرفعه إلى الرسول ﷺ.. فشكى لي وتذمّر وذكر الحاجة والفقر والعيال فتركته.

وأتى في الليلة الثالثة فأخذته، فشكى، فما تركته وعزمت على أن أسلمه إلى رسول الله ﷺ.

فقال: أطلقني وأعلمك آية إذ قلتها في ليلتك كان عليك حافظاً يحفظك من الشيطان، وكان الصحابة حريصين على الخير، فقال أبو هريرة: ما هي؟

قال: آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، فتركه أبو هريرة.

ثم ذهب رضي الله عنه فأخبر الرسول ﷺ.. فتبسّم ﷺ وقال: «**أتدري من تخاطب يا أبا هريرة منذ ثلاث؟**»، قال: قلت: لا يا رسول الله.

قال: «**ذاك الشيطان! أما إنه صَدَقَك وهو كذوب**»[1]. صدقك في آية الكرسي لا تقرأها إلا كان عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، ولكنه كذوب دائماً.

وهنا درس عظيم يدل على أنه لا يتحرَّز الإنسان من الشيطان إلا بإرادة الواحد الأحد، وبذكر الله عز وجل.

وعلى أن الحكمة تؤخذ ولو من الكافر الضال، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أين وجدها.

والشيطان أخي المسلم له تلبيسات، ومن حكمة الله أن خلق الإنسان ليميز الخبيث من الطيب، والله جعل هناك جنة لأوليائه، وناراً لأعدائه.

قال ﷺ: «**أتى الشيطان للإنسان فقال له: لا تُسلم فإنك إن أسلمت تحملت التكاليف فعصاه الإنسان فأسلم، فأتاه فقال: لا تهاجر فإنك إن هاجرت تركت أهلك وأطفالك، فعصاه فهاجر.**

فأتاه فقال: لا تجاهد فإنك إن جاهدت قُتلت، وسُفك دمُك، فعصاه فجاهد»[2]، فلا يزال الإنسان يعصي الشيطان حتى يدخل الجنان، ويفوز برضوان الواحد الديّان.

والشيطان يا عبدالله قرآنه الغناء، ورُقيته الشعر، وبيته الحمام، وموسمه الأسواق وأحبابه كل عدوٍّ لله.. ورأس ماله الأماني.. فمن اتبعه أخذه حتى يُكبه على وجهه في النار، وما حدثت الفواحش في العالم، وما صُنعت الكبائر، ولا ضل الشباب والشيب، ولا سُفكت الدماء، ولا عُطلت الحدود إلا بمسؤولية الشيطان الرجيم عليه لعنة الله.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) صحيح النسائي (٢٩٣٧).

فهو الذي جعل الشباب ينحرف عن المسجد إلى المقهى، وعن المصحف إلى المجلة الخليعة، وعن السنة إلى البدعة، وعن التلاوة إلى الأغنية، وعن رفقة الخير إلى رفقة الضلالة والغواية، وعن الطاعة إلى الفحشاء.. وهو الذي تلقَّف شباب الإسلام ألوفاً مؤلفة فصرفهم عن طاعة الله، فانظر إليهم كيف انحرفوا وكيف انصرفوا، لولا بقية باقية من الشباب الخيّر والمستقيم الذين عصمهم الله من الشيطان.

أما رأيت كيف صرفت الأموال في المعصية؟ أما رأيت كيف سافر المسافر ليعصي الله ويخرج من الجزيرة ويظن أن الله ليس إلا في الجزيرة فقط! ولا يدري أن الله معه في كل بلد، في الجزيرة وخارج الجزيرة، فيرتكب من الفواحش كالجبال، ويذهب ماله، ودينه، وشرفه، وعرضه، لأنه أطاع الشيطان.

فيوم أطاع الإنسان الشيطان ترك المسجد ورقد على الفراش، وخاف الماء والبرد. فما حضر الجماعات، وارتكب السيئات، وأغضب رب الأرض والسموات.

ويوم أطاع الإنسان الشيطان أطلق بصره للحرام، فتناول بصره المرأة الفاتنة، والصور الخليعة والمحرمة، فوقع في الزنا وكسب ماله من الربا ووضع ماله في بنك الربا، ليأخذ حصته من لعنة رسول الله ﷺ الذي قال: «**لعن الله آكل الربا، وموكله وكاتبه وشاهديه**»، قال ﷺ: «**وهم سواء**»، وفي لفظ: «**وهم في الإثم سواء**»(١).

● قصة برصيص (أو برصيصا) مع الشيطان:

ولذلك فإنه يجب علينا أخي المسلم ألا نأمن مكائد الشيطان ولا

---

(١) رواه مسلم بلفظ (لعن رسول الله...).

مصائده، وأن نُعد له العدة، وأن نستنفر قوانا مستعينين بالله الواحد الأحد، فلا عاصم لنا إلا الله.

فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن جرير وابن كثير: هذه الآية نزلت في عابد من عبَّاد بني إسرائيل اسمه برصيص، وكان عابداً من العباد الكبار قد سكن في صومعة لعبادة الله، ولكن غلبت عبادته على علمه، والعالِم أشد على الشيطان من ألف عابد.

فلما عبد الله وسجد لله وأكثر من ذكر الله، أراد الله أن يبتلي إيمانه، وأن يمتحن يقينه ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ فجلس في صومعته، فأتاه رجال مجاهدون من بني إسرائيل وقالوا: يا برصيص إنا نريد الجهاد في سبيل الله، وعندنا أخت هي في بيتنا بجانب صومعتك وليس لها بعد الله إلا أنت، فعليك أن ترعاها حتى نعود من الجهاد. قال: حُباً وكرامة.

فخرج هؤلاء إلى الجهاد في سبيل الله، ومكث برصيص في صومعته يتعبَّد لله.. فأتى الشيطان إليه.. وقال: يا برصيص إن هذه المرأة في ذمتك، وهذه الفتاة في عُهدتك، وأنت إذا تركتها فسوف تستوحش، فلو أخرجت رأسك في الصباح فسلَّمت عليها وهي متحجبة في بيتها ما ضرَّك ذلك شيئاً، فأخذ بوصية الشيطان.. فأطلَّ برأسه وسلَّم عليها.

فأتاه ثانية وقال: لو نزلت بجانب بيتها كي لا يأتيها أجنبي أو يخوفها مارد! فنزل بجانب البيت وما رآها.

وأتاه ثالثة وقال: إنها فتاة غريبة مستوحشة خرج أهلها للجهاد فمن يؤنسها ويحدثها، فنزل فآنسها وحدَّثها وهي متحجبة.

فأتاه رابعة وقال: أنت عالم ذكيّ ومحفوظ من الله وتخاف الشيطان فاقترب منها فقبّلها.. فوقع في الفاحشة فحملت!

فلما حملت قال له الشيطان: إذا أتى إخوتها ورأوا هذا المنكر فإنها سوف تُخبرهم فاتهمك الناس فسقطْتَ من أعينهم فاقتلها خيراً لك.

فذبحها وحفر لها قبراً في بيتها ودفنها.

فأتى إخوتها من الجهاد فقالوا: أين أختنا؟

فبكى برصيص وتندَّم وأخرج دموع النفاق والسمعة، والرياء، وقال: مرضَت وكانت زاهدةً عابدةً فدفنتُها بعد أن دعوتُ لها!

فبكوا عليها وصدّقوه، وناموا تلك الليلة.

فأتى الشيطان لأخيها الأكبر وأخبره أن برصيص فعل بها الفاحشة وقتلها.

وأتى الثاني والثالث في المنام وأخبرهما كما أخبر الأول.

فأصبحوا فتحدَّثوا بما رأوا في نومهم، فاتفق رأيهم على أن يقتصوا منه. فذهبوا وكشفوا المكان الذي دلهم الشيطان عليه فوجدوها حامل ومقتولة.

فأتى الشيطان فقال: لا ينجيك يا برصيص إلاّ أن تسجد لي سجدة لأحميك، فكفر بالله، وسجد للشيطان سجدة!

فقتلوه وصلبوه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فيا أخي المسلم عليك بالاعتصام بالله واللجوء إلى الله،

فاحفظ الله يحفظك لأنه هو القوي المتين، واركن إلى الله، وتوكل على الله. فوالله إن لم يحفظك ربك فلا حافظ لك.

فالزم يديك بحبل الله معتصماً   فإنه الركن إن خانتك أركان

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ قيل ادخلوا في الإسلام جملة وتفصيلاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وخطوات الشيطان إملاءاته ووسوسته، ومنهاجه، وأباطيله، ومصائده، ومكائده.

• كيف تتحصن من الشيطان:

ولا ينجو العبد من الشيطان إلا بأربعة حصون:

أولها: ذكر الله عز وجل دائماً: قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: الشيطان جاثم على قلب العبد، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس.

فلا ينجو العبد من الشيطان إلا بذكر الله الواحد الأحد.. فهو أعظم حرز في الحياة.. وهو سلاح الموحدين، وهو منشود الأولياء الصالحين، وهو حصن العابدين، وهو سيف العارفين.

فمن اهتدى إلى ذكر الله كفاه وحماه ووقاه، ومن غفل عن ذكر الله وقع في خطوات الشيطان وتلبيساته وفواحشه.

الثاني: الوضوء: فلا يأتي الشيطان إلا أهل النجاسات وأهل الحدَث دائماً. فمسكنه دور النجاسات، والخرابات، والقلوب التي ما عرفت رب الأرض والسموات، فالشيطان يلجأ إلى النجاسة، ويحبها، ويتلبس بأهلها.. فمن داوم على الوضوء والطهارة تحصَّن من الشيطان وابتعد عنه الشيطان، وأكثر الذين يصيبهم المس والصرع هم أهل

النجاسة والحدث، يأتيهم الشيطان فيتلبّس بهم، لأن الشيطان ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾

الثالث: الصحبة الصالحة: أصحابك الأبرار الأخيار، أهل الصلوات الخمس، وأهل القرآن، وأهل المسجد، وأهل السنة.. فهؤلاء يحاربون الشيطان، ويعينونك على الشيطان، «**وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**». ويوم ترافق عصابات الإجرام، وشلل البغي الذين نصبوا الكمائن لأولياء الله، ووقفوا في طريق الأنبياء والرسل.. حينها سوف تنسلخ من منهجك وعبادتك وإرادتك وتبيع حظك من الله.. بغضب من الله وبمقت من الله وبلعنة من الله.. يقول الشافعي:

أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي ولو كنا سواء في البضاعة

وقال ابن المبارك:

وإذا صاحبتَ فاصحب ماجداً ذا عفاف وحياء وكرم
قوله للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: (تزوَّدوا من الإخوان الصالحين ذخراً في الدنيا والآخرة).

قالوا: في الدنيا نعم، ولكن في الآخرة لماذا؟

قال: أما يقول الله عز وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

فيا أخي في الله، اتق الله في الرفقة الصالحة فإنهم جندك وأعوانك في الطريق إلى الله.

الرابع: ترك المعاصي والفواحش، والإعراض عن الذنوب، وكثرة الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه، يقول سبحانه

وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فاللهم اجعلنا من الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله واستغفروا لذنبهم.

أخي المسلم.. هذه هي مكائد الشيطان، وتلك طرق الوقاية منه والتغلب عليه والتحصن منه.. أرجو الله العلي العظيم أن ينفع بها، وأن ينفعنا بما علمنا، ويعلمنا ما جهلنا، وأن يزيدنا علماً به وخشية منه، ورغبة ورهبة إليه.. هو ولي ذلك والقادر عليه.

سبحان ربك رب العزَّة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

❋ ❋ ❋

الأمر بتقوى الله

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

الأمر بتقوى الله هي وصية الله للأولين والآخرين، ومن لم يعمل بهذه الوصية فإنه سوف يخسر ويهلك ويندم، ولذلك قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فتقوى الله وصيته سبحانه وتعالى للأولين والآخرين.

ومعنى الحياة هو تقوى الله عز وجل في القلوب.

كثير من الناس يظن أن معنى الحياة أن يأكل ويشرب ويتمتع ويركب ويسكن ويتكلم وينام ويقوم.

إن هذا جَهل مفهوم الحياة، فما هذه إلا حياة بهيمية.. فالكافر وهو كافر يأكل ويشرب ويتمتع ويركب ويسكن ويقوم وينام، لكنه كافر، لأن معنى الحياة أن تخرج من الظلمات إلى النور، ومن الغواية إلى الهداية، وأن تنقذ نفسك بتقوى الله من غضب الله، لذلك يقول عزَّ مِن قائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

أو من كان ميتاً في شهوته وفي ضلالته وفي غوايته يتبع كل ناعق فأحياه الله بالإيمان وبلا إله إلا الله وشرح صدره لهذا الدين، كمن جعله الله سبحانه وتعالى غاوياً ضالاً مطروداً من رحمته ومن نوره.

فهذا كيف يعيش؟ ولماذا يعيش؟ وإلى أين يسير.

ولذلك يقول ابن تيمية رحمة الله عليه: من اعتقد أنه سوف يهتدي بغير هدى الله الذي أنزل به كتابه وأرسل به رسوله، ﷺ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

لأن المؤمن يولد مرتين، والكافر يموت مرتين، فميلاد المؤمن يوم أتت به أمه يوم عرف الحياة.

يبكي من ظلم الحياة ومن غوايتها ومما سوف يواجهه من مصاعب ومشاكل ولذلك يقول الشاعر:

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

فأنقذ نفسك ألا تأتيك سكرات الموت، ولا يأتيك وعد الله واليوم الموعود، وتشتد عليك السكرات.

فأنقذ لتبتسم في تلك الساعة.

ولذلك يقول الله عز وجل في هذه الساعة: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

ويقول عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

فالحياة كل الحياة أن تحيا بالقرآن وأن تحيا بالإيمان وهذه هي الحياة الثانية أو المولد الثاني.

وأما الكافر فإنه يموت مرتين: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾، يموت الكافر يوم يكتب الله عليه الموت كموت البهائم.

ويموت قبلها يوم مات قلبه فما استنار بنور الله، وما عرف منهج الله، وما اهتدى بهدى الله.

ولذلك كانت وصية الله عز وجل للأولين والآخرين تقواه تبارك وتعالى.

يقول عزَّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾. قيل لابن مسعود رضي الله عنه أحد جيل محمد وشباب الصحابة، ذلك الجيل الذي ما عرفت البشرية على أطوارها جيلاً ومجتمعاً كذاك المجتمع الأول، مجتمع الصحابة الذين وزَّعوا لا إله إلا الله على البشرية فبلغوا بعد خمس وعشرين سنة السند وطشقند والأندلس وجنوب أفريقيا، لأنهم عرفوا الله ومنهج الله ولا إله إلا الله.

قيل لابن مسعود: ما هو حق تقاة الله.

قال: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

فمن كفر نعمة الله فما اتقى الله، ومن عصى الله فما اتقاه سبحانه وتعالى، ومن نسيه سبحانه وتعالى أنساه الله نفسه ومستقبله وولده وبيته وأسرته ومكتبه ومنصبه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ولذلك يقول عزَّ من قائل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

وقف أمّير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه وهو كما يقول ابن كثير في عهده بعد موت عثمان أزهد الناس وأخشى الناس وأعلم الناس، لأنه تربية رسول الله ﷺ.

وقف على منبر الكوفة فسُئل عن التقوى.

قال: هي الخوف من الجليل سبحانه وتعالى، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

اسمع لكلمات النور وحرارة الإيمان التي بعثها جيل محمد ﷺ في قلوب الناس.

(هي الخوف من الجليل) والجليل هو الله، (والعمل بالتنزيل) فالذي يتقي الله ثم لا يعرف ماذا يتقي، ولا تكون تقواه على بصيرة من الكتاب والسنة ما اتقى الله، (والرضا بالقليل) أي ألا تكون الدنيا أكبر همك بل يكفيك منها ما يكفي المسافر، (والاستعداد ليوم الرحيل) هذه هي تعريفها عند علي رضي الله عنه وأرضاه.

وقال عمر لكعب الأحبار: ما هي التقوى؟ صف لي التقوى.

قال: يا أمير المؤمنين، أمررت بأرض أو بطريق ذي شوك؟

قال: نعم.

قال: فماذا فعلت؟

قال: تحفزت وشمّرت.

قال: كذلك التقوى.

ما دام أن الطريق هذه ذات الشوك يتحفز فيها المار فكذلك الحياة الدنيا، فمن أراد تقوى الله فليتحفَّز وليتحرَّز، فإن الله عز وجل يحفظه.

ولذلك في الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي

رسول الله ﷺ: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة إذا اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف**».

فتقوى الله معناها المحافظة على أمر الله والانتهاء عن ما نهى الله عز وجل.

● تقوى الله في اللسان:

وتقوى الله تكون في اللسان، وأعظم ما ابتُليت به اللسان. ولذلك يقول بعض أهل العلم: تسعة أعشار الذنوب من اللسان.

واللسان هو الذي يجرّ على المؤمن الذنوب والخطايا، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

ووصف المتقين عزَّ مِن قائل فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ يقول عقبة بن عامر أحد الصحابة: يا رسول الله ما النجاة؟ أي ما هو الأمر الذي ينجِيني من غضب الله، ومن سخط الله، ومن عذاب الله.

قال: «**كُفَّ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»[1].

وقال معاذ: يا رسول الله ما هو العمل الذي يقرّبني من الجنة ويبعدني عن النار؟

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٩٩) وراجع مجمع الزوائد (٧/٣٠٢).

قال: **«لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه»**.
ثم ذكر له ﷺ الأمور التي تقرِّبه من الجنة وتنجيه من النار، ثم قال في آخر الحديث: **«ألا أدلك على مِلاك ذلك كله»**.

قال: قلت: بلى يا رسول الله.

قال: **«كُفَّ عليك هذا، وأخذ بلسان نفسه»**.

قال معاذ: أإنا لمؤاخذون يا رسول الله بما نتكلم به؟

قال: **«ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم أو قال على رؤوسهم إلا حصائد ألسنتهم»**.

فنعوذ بالله من أضرار اللسان. ولذلك عرف الصالحون ضرره وعلموا أنه لا يمكن أن تأتي تقوى الله إلا باجتناب ضرر هذا اللسان.

يقول أحد التابعين: رأيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه وقد أخذ بلسان نفسه وهو يحاسب نفسه ويبكي ويقول: هذا أوردني الموارد أي: موارد الهلاك.

هذا وهو أبو بكر الصديق صاحب القدم الثابت في الإسلام، والأول في الاستجابة من الكبار، وصاحب الإنفاق في سبيل الله، وخليفة الإسلام بعد رسول الله ﷺ، الذي يُدعى يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية. لأن للجنة أبواباً ثمانية كما تعرفون.

يقول عليه الصلاة والسلام: **«إن للجنة أبواباً ثمانية فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة»**، إلى آخر تلك الأبواب.

فقال أبو بكر وهو بجانب الرسول عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله أيُدعى أحد من تلك الأبواب الثمانية؟ انظر إلى الهمَّة

العالية، انظر إلى طلب ما عند الله عز وجل، ولذلك فالهمة ليست بالأجسام وليست بالمناصب وليست بالأموال، ولكنها بالقلوب.. فهي همَّة تمر مرَّ السحاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

فيتبسم ﷺ إعجاباً من هذا الرجل العظيم الذي يريد أن يُدعى من الأبواب الثمانية ويريد أن يكون من المصلين ومن الذاكرين ومن المتصدقين ومن الزهّاد ومن العبَّاد ومن المجاهدين.

فقال له ﷺ: «**نعم وأرجو أن تكون منهم**»، متفق عليه.

يقول الإمام أحمد في كتاب الزهد في ترجمته: أُثر عنه أنه دخل في مزرعة رجل من الأنصار وهو خليفة يتنزه مع الناس رضي الله عنه وأرضاه مع الصحابة. فلما رأى مزارع الأنصار رأى طائراً يطير من نخلة إلى نخلة، ومن شجرة إلى شجرة، فجلس يبكي رضي الله عنه وأرضاه، وكان رجلاً حزيناً رقيق القلب نادماً لما في قلبه من إيمان ومن مخافة.

فقال له الصحابة: يا خليفة رسول الله ما لك؟

قال أبكي لهذا الطائر، يطير من شجرة إلى شجرة ويرد الماء ويرعى الشجر ثم يموت لا حساب ولا عذاب، ليتني كُنت طائراً.

فبكى الصحابة رضوان الله عليهم وأرضاهم.

هؤلاء هم الذين عرفوا تقوى الله عز وجل وخافوا الله، ولذلك أورد ابن القيم في روضة المحبين أن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه لما تولى الخلافة كان يخرج من مسجد الرسول ﷺ بعد صلاة الفجر كل يوم، يخرج إلى ضاحية من ضواحي المدينة فيمكث في خيمة هناك في زاوية في الضاحية ساعة ثم يخرج.

قال عمر: لأتبعنّ اليوم أبا بكر لأعرف أين يذهب.

فتبعه يوماً حتى وصل الخيمة، وهو لا يرى عمر ولا يظن أن عمر يراه، فمكث ساعة في الخيمة ثم خرج منها، فلما خرج دخل عمر رضي الله عنه وأرضاه إلى تلك الخيمة فوجد فيها امرأة عجوزاً كبيرة عمياء فقال لها عمر: يا أمة الله من أنت؟

قالت: أنا امرأة عجوز عمياء لي أولاد أو بنات ليس لنا كافل مات أبونا ولا كافل إلا الله.

قال: فمن هذا الشيخ الذي يدخل عليكم؟

قالت: هذا الرجل لا نعرفه. يأتينا كل يوم فيكنس بيتنا، ويصنع فطورنا، ويحلب شياهنا.

فجلس عمر يبكي ويقول: رحمك الله يا أبا بكر أتعبت الخلفاء بعدك.

إن لم يكن هذا وفاء صادق | فالناس في الدنيا بغير شعور
رحماك ربي هل بغير وجوهنا | عُرف السجود في بيتك المعمور

أي جيل هذا الجيل؟

وأي طراز هذا الطراز الذي رباه محمد ﷺ؟

فمن أراد تقوى الله فليدرس حياة هؤلاء، فإن الذي لا يعرف حياتهم أو لا يدرس ما قالوه وما سطّروه وما تركوه سوف يبقى في جهل، وسوف يبقى في عميّة لأنهم خلفاء رسول الله ﷺ وأعرف الناس بالإسلام.

ولذلك أُثر عن ابن عباس رضي الله عنه في اللسان أنه وقف على الصفا وأخذ يبكي ويمسك بلسان نفسه ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم أو اسكت عن شرٍّ تسلم.

فالذي أوصي نفسي وإياكم به هو تقوى الله في اللسان وهو أعظم ما يُتَّقى.

فلا نتكلم إلا بخير.

قال أحد التابعين: جلسنا مع عطاء بن رباح ثلاثين سنة في الحرم فما كان يتكلم إلا بذكر الله، أو بآيات الله، أو بأمر بمعروف، أو بنهي عن منكر، أو بحاجة لا بدَّ منها.

فقلنا له في ذلك.

فقال: ما لكم؟ أتنسون أن عليكم من يحفظ أنفاسكم ومن يسجِّل كلماتكم ويحاسبكم به أمام الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

فالله الله في حفظ اللسان.

تحفظ اللسان من اللعن ومن البذاء ومن الفُحش ومن الإسراف في المزاح الذي لا يرضي الله عز وجل، ومن كثرة اللغو بغير ذكر الله عز وجل، ومن الغيبة ومن النميمة ومن الاستهتار والاستهزاء خاصة بالأخيار وبالعلماء وبطلبة العلم وبالدعاة، فإن هذا هو النفاق الظاهر الذي لا نفاق بعده.

• تقوى الله في المطعم:

وتقوى الله كذلك في المطعم. قال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة؟

قال: «**يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**»(١).

ولذلك ذكر ﷺ في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم الطويل: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء ومطعمه حرام،

---

(١) أخرجه البيهقي، وأخرجه الترمذي بنحوه في مناقب سعد (٣٧٥٢) بسند صحيح.

وملبسه حرام، ومشربه حرام، وغُذي بالحرام، فأنّى يستجاب له»؟

كيف يستجاب لمن مطعمه حرام؟ كيف تُقبل صلاته وصيامه، وحجه وعمرته، وذكره وتلاوته للقرآن، وقد أكل الربا، ولبس من الربا وتغذى بالربا، واشترى سيارته وبنى بيته بالربا، وربّى أطفاله بالربا؟

أي عبادة هذه؟ والرسول ﷺ يقول: «**لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال هم في الإثم سواء**».

ولذلك أجاب الله دعوته ﷺ، فاستجاب لدعوة سعد رضي الله عنه.

ومن ذلك أن أهل الكوفة اشتكوه إلى عمر رضي الله عنه وكان خليفةً فقالوا: لا يحسن أن يصلي بنا.

فيقول سعد متعجباً مندهشاً من هذا الأمر: يا عجباً لبني أسد يعيِّروني بالصلاة وأنا أدخلتهم في الإسلام بسيفي هذا!

وصدق رضي الله عنه وأرضاه، فإنه هو وأمثاله من دعاة الحق الذين أدخل الله بهم كثيراً من الأمم في الإسلام.

فلما وصلت الشكوى إلى عمر أرسل بعض الصحابة يستقصون الحقائق في العراق، فمروا بمساجد الكوفة مسجداً مسجداً كلما سألوهم عن سعد أثنوا عليه خيراً ودعوا له بالخير إلا مسجداً واحداً قام رجل منهم فقال: أما إن سألتمونا عن سعد فوالله إنه لا يعدل في القضية، ولا يحكم بالسوية، ولا يسير مع السرية.

فقام سعد وقال: اللهم إن كان هذا الرجل قام كذباً ورياءً وسمعة فأطل عمره وأطل فقره وعَرّضه للفتن.

فاستجاب الله دعوة الصادق سعد رضي الله عنه لما علم صدقه وإخلاصه وإنابته لله سبحانه وتعالى.

يقول أحد الرواة: والله لقد رأيت هذا الرجل بعيني وقد طال عمره حتى أصبح شيخاً كبيراً سقط حاجباه من الهرم على عينيه وأصبح يتعرَّض للجواري في سكك الكوفة يغمزهن ويقول: شيخ مفتون أصابتني دعوة سعد.

فتقوى الله عز وجل تكون في المطعم الحلال بأن يتقي الله الإنسانُ في ما يُدخل بطنه، فلا يدخل بطنه إلاّ كل حلال طيب، ليقبل الله سبحانه وتعالى عنه أحسن ما يعمل ويتجاوز عن سيئاته في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.

• تقوى الله في السمع والبصر:

وتقوى الله عز وجل تكون في السمع والبصر، ولذلك يقول الإمام الشافعي:

لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معائباً لقوم فقل يا عين للناس أعين

• أمور تعين على التقوى:

والأمور التي تحصل بها التقوى قد تُجمع في خمسة:

الأمر الأول: مراقبة الله عز وجل في السر والعلن، فاجعل من الله رقيباً عليك في سرِّك وعلانيتك، فإنه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية.

هو معك أينما كنت، فهو مع الكافر والفاجر معية إحاطة وإدراك ورصد.

وهو مع المؤمن معية نصر وتأييد وحفظ.

ولذلك اتقْ الله الذي هو معك ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾. فاجعل منه رقيباً سبحانه وتعالى واعبده كأنك

تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك، وهذا تعريف الإحسان الذي عرَّفه به محمد ﷺ في حديث جبريل الطويل.

واعلم أن الرقابة من أعظم ما يمكن أن يحقق التقوى في القلب. أن تراقب الله خاصة في السر، لأن كثيراً من الناس يراقبون الله في العلانية وإذا خلوا في السر هتكوا حُرمات الله، ولعبوا بحدود الله، فويلهم من الله. ولذلك في سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين أقوام يوم القيامة بحسنات كجبال تهامة يجعلها الله هباءً منثوراً**».

قالوا: يا رسول الله أليسوا بمسلمين هؤلاء؟

قال: «**بلى مسلمون يصلون كما تصلون، ويصومون كما تصومون، ولهم حظ في الليل، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**».

فهؤلاء يجعل الله أعمالهم يوم القيامة هباءً منثوراً، ويوردهم موارد الضالين، نعوذ بالله من ذلك.

كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: الله الله في السرائر.

ويقول الأندلسي يوصي ابنه:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحيي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

الأمر الثاني: ذكر الله دائماً وأبداً ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآية.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾. فذكر الله أكبر من كل شيء وهو أعظم ما يحصّله العبد.

فاللّهَ الله في ذكر الله.

سُئل ابن تيمية شيخ الإسلام رحمة الله عليه عن أعظم وصية وأعظم عمل بعد الفرائض.

قال: أما أعظم وصية فلا أعظم من وصية الله للأولين والآخرين وهي تقوى الله، وهي التي أوصى بها رسول الله ﷺ جيوشه ورسله عندما كان يرسلهم، كمعاذ حينما قال له الرسول ﷺ كما في الترمذي:

«اتقي الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن».

وأما أعظم عمل فلا أعلم بعد الفرائض من ذكر الله عز وجل.

فليكن ذكر الله وردك أخي المسلم دائماً وأبداً.

اذكر الله جالساً وقائماً وعلى جنبك، وفي سفرك وفي حلِّك، وفي ترحالك، وفي ليلك وفي نهارك، ليتولاك الله وليشرح صدرك للإسلام، ويحبب لك الطاعة، ويكفِّر عنك سيئاتك، وليجتبيك سبحانه وتعالى، وليلهمك رشدك، وليبصرك بحقائق هذا الدين، وليجعلك من الأخيار الأبرار.

فعليك بذكر الله دائماً وأبداً.

الأمر الثالث: تدبّر كتاب الله عز وجل.

فأوصيكم وأوصي كل مسلم وأوصي نفسي أولاً بتدبر كتاب الله عز وجل، هذا الكتاب الخالد الذي أنزله الله شفاء وهداية ونوراً.

أن نتدبره وأن نجعل لنا ورداً يومياً نقرأه وحزباً لا يمكن أن نغادره.

قال عزَّ من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، ما لهم لا يتدبرون القرآن؟ ما لهم لا يتفهمون حقائق القرآن؟ ليعرفوا الحق من الباطل والرشد من الغي والضلال من الهداية.

وقال عزّ مِن قائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

فأوصي نفسي وإياكم بتدبر كتاب الله ثم قراءة السنَّة المطهرة والسيرة الخالدة، سيرة محمد ﷺ، وكتب السنة كلها سيرة.

ومن أحسن ما كتب في السيرة كتاب (زاد المعاد) لابن القيم رحمه الله فليُتدبر.

الأمر الرابع: كثرة الدعاء.

فعلينا أن نضرع لله بالدعاء، يقول عزَّ مِن قائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

فالدعاء دائماً وأبداً.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قيل لعمر رضي الله عنه وأرضاه: ما هي النجاة؟

قال: ما أعلم بعد رحمة الله كالدعاء.

فالدعاء هو النجاة بإذن الله، خاصة إذا صاحب الأوقات الفاضلة كأدبار الصلوات، وفي السجود، وبين الأذان والإقامة، وفي آخر الليل، وآخر ساعة من الجمعة، ويوم عرفة، والأيام الفاضلة المشهودة.

الأمر الخامس: صحبة الصالحين وزيارتهم ومحبتهم والاستئناس برؤياهم.

كيف يتقي الله من يُجالس الفَجَرة؟.

كيف يتقي الله من يحب المفسدين في الأرض؟

كيف يتقي الله من وقته ضائع مع كل مُعْرِض عن الله؟

ولذلك يقول علي رضي الله عنه وأرضاه: يا أيها الناس، تزوَّدوا من الإِخوان الصالحين، فإنهم عون في الدنيا والآخرة.

قالوا: يا أبا الحسن أما في الدنيا فنعم، ولكن كيف يكونون عوناً في الآخرة؟

قال: أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول الشافعي في رسالته للإِمام أحمد:

أحب الصالحين ولستُ منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي ولو كنا سواءً في البضاعة

فاللّهَ اللّهَ في محبة الصالحين، وفي الاستفادة منهم، والجلوس معهم، وفي طلب دعائهم، فإنه من أعظم العون في الدنيا والآخرة على التقوى.

أسأل الله تعالى لي ولكم أن يوفقنا للتقوى والعمل الصالح، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❃ ❃ ❃

الأعمال بالخواتيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسَلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

موضوع هذا الدرس (الأعمال بالخواتيم).

والأصل في ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وقال جلَّ اسمه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قال أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه كما روى البخاري ذلك عنه في كتاب الرقاق: ارتحلت الدنيا مُدْبِرة، وارتحلت الآخرة مُقبلة، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء

الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لبٍّ فرحاً.

وقال الناظم:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الموت نبنيها
أين الملوك التي كانت مسلَّطة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

بيننا وبين الناس، وبين المظلوم والظالم، وبين المؤمن والفاجر، وبين القوي والضعيف، وبين الغني والفقير، ساعة الموت.

قال أحد العلماء: ساعة الموت يُسلم فيها الكافر، ويذعن فيها الفاجر، ويعود فيها المتمرد، ويضعف فيها القوي، ويستسلم فيها الجبَّار.

وساعة الموت ينطرح فيها الإنسان فيبحث عن عمل فلا يجد إلا ما قدم، قال ﷺ في الصحيحين: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**».

وهذا الحديث فيه سؤال: كيف يعمل العامل بعمل أهل الجنة يصلي المصلي، ويزكي المزكي، ويصوم الصائم، ويحج الحاج.

فكيف يعمل العامل ويتقي المتقي، ويجتهد المجتهد، فإذا بلغت الروح الحلقوم سبق عليه الكتاب وخسر عمله؟

وكيف يفجُر الفاجر، ويظلم الظالم وينتهك الأعراض، ويلعب بالدماء، ويضيِّع الصلوات، ويلعب بالمحرمات، فإذا وصل إلى السكرة أُدخل الجنة؟

أليس هذا بإشكال؟

لكن الله يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

والجواب أن يقال: معنى الحديث أنه يعمل بعمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، وإلا ففي باطنه حيَّات وعقارب وظلم أسود.

ويعمل بعمل أهل النار فيما يظهر للناس، وإلا ففي قلبه خير كثير وله خفية من عمل صالح الله يكشفها في سكرة الموت.

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا يُرَى إذا بلغت الحلقوم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٨٧)﴾.

فالمعنى أن بعض الناس أظهر للناس جميلاً ولله أظهر الخبيث، فلما حَصْحَصَ الحق وأتت ساعة الصفر ظهر القبح.

وكان بعضهم يُقَدم لهم المصحف في سكرات الموت ويقال: قل لا إله إلا الله.. هذا المصحف.

قال: هو يكفر بلا إله إلا الله!! ويكفر بالقرآن!! لأنه عاش منافقاً مرائياً ما عرف الله.

وآخر صالح ولكن ظن الناس أنه سيء لكنه تاب وعمل خيراً فالله

لم يخذله والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال أهل العلم كما روى ذلك الحافظ ابن كثير وغيره: أي وقت سكرات الموت.

وقد تنزلت الملائكة على كثير من هذه الأمة وأولهم وخيرهم وسيدهم رسول الله ﷺ، فإن ملك الموت قبض روحه وكان يقول: **«بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى»**(١)، وذهب إلى الله سعيداً، وكان أحسن أيامه يوم لقاء الله سبحانه وتعالى.

وحضرت الوفاة عمر بن عبدالعزيز الخليفة الراشد، فحضرت الملائكة قبل أن تقطف روحه فقال لامرأته فاطمة بنت الخليفة وأخت الخلفاء: اخرجي فإني أرى نفراً ليسوا بإنس ولا جن.

فخرجت وأغلقت عليه الباب وتوفي.

وكان ابن المبارك في سكرات الموت يبتسم ويقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فالملائكة قبل الموت تبشّر المؤمن وتقول له: لا تخف ولا تحزن، لا تخف ممن قبلك، ولا تحزن على ما قدمت، فالله معك.

وأما المنافق والفاجر فتزلزله الملائكة زلزلة، وتقول له: هذا يومك يا عدو الله، وهذا أسوأ يوم لك يوم لقاء الله، أو كما ورد.

يقول ﷺ في الصحيحين: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**.

---

(١) رواه البخاري.

قال أحدهم: يا رسول الله: إنا نكره الموت.. من الذي يحب الموت، بل إذا غضب الإنسان على الإنسان دعا عليه بالموت.

قال: «**ليس هذا، ولكن إذا حشرجت النفس واحمرَّت العينان فمن أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»(١)

قال الشيخ حافظ بن أحمد:

ومنْ لقاء الله قد أحبّا كان له الله أشد حبّا
وعكسه الكاره فالله سل رحمته وفضله ولا تتكل

وفي سوء الخاتمة وردت أحاديث، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه وأرضاه: أن الصحابة لما حضروا غزوة من الغزوات جاء رجل من أهل المدينة اسمه (قزمان) وهو من الموالي، شجاع بتَّار، فقاتل الكفار قتالاً مريراً وكان يدافع مع المؤمنين.

فلما رآه ﷺ قال: «**هو من أهل النار**»، فتعجب الصحابة.. وأثناء المعركة أصابه جرح آلمه فاتكأ على سيفه حتى خرج سيفه من ظهره.

فقالوا: يا رسول الله هنيئاً له الشهادة (وهم لا يعلمون بصنيعه).

قال ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده إنه من أهل النار**».

فسألوا: ما له؟

فقالوا: جزع من الموت وجزع من الجراح وما صبر فوقع على سيفه حتى خرج من ظهره(٢).

وحضر آخر غزوة لرسول الله ﷺ فلما استشهد فيما يظهر للناس قالوا: هنيئاً له الجنة.

---

(١)(٢) متفق عليه.

قال ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده إن البردة التي غلّها تتلظى عليه ناراً في جهنم**».

فوجدوه قد غلَّ بردة لا تساوي ثلاثة دراهم[1].

هذه بعض أحاديث الخاتمة لبعض الناس.

قال ابن بطال المالكي شارح البخاري: في تغييب الخاتمة عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، بأنه لو علم أنه كان ناجياً أعجب وكسل عن العمل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً، فغُيّب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء.

معنى الكلام أنَّ من سِتر الله، ومن عفو الله، ومن رحمة الله، أنه حجب خواتيم الأعمال عن الناس، فلو أخبرك الله عز وجل بحسن الخاتمة أصابك العُجب وكسلتَ عن العبادة واتكلت على الخاتمة، ولو أخبرك بسوء الخاتمة لحملك ذلك على العتو والتمرُّد.

لأن بعض الناس إذا قنط من رحمة الله وأُبعد عن الله ازداد عتوّاً وتمرداً.

إذاً الخواتيم بيد الله سبحانه وتعالى ولا ندري بما يؤول إليه العبد.

قال رجل لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا.

فقال: أمنُك على نفسك أشد من ذنبه.

قال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، فلعله هو يكون من الخاسرين.

---

(١) متفق عليه.

ولذلك تجد بعض الطائعين فيما يظهر للناس.. هم أحقر ربما عند الله من بعض العصاة وليس هذا تشجيعاً على المعصية حاشا وكلا، لكن بعضهم إذا أعجبته نفسه وطاعته تجبَّر على الله حتى بعضهم يصبح إلٰهاً مع الله، فتجد نفسه كنفس نمرود وهو يصوم النهار ويقوم الليل.

فإذا ذُكرت له المعاصي، قال: أعوذ بالله سلَّمنا الله من فعلهم.. أعوذ بالله من هذه الأفعال الوخيمة.

ثم يقول أحدهم: والله إني منذ أن ولدتني أمي ما عصيت الله طرفة عين!

ويقول الثاني: ما أظن أنني كذبت منذ أن احتلمت!

ويقول الثالث: منذ أن عقلت رشدي ما سقطت فيما سقط فيه هؤلاء!

وهكذا من كلمات التزكية والإعجاب واحتقار الآخرين.

إذن الأعمال بالخواتيم بل قال بعضهم: ربما أصرَّ العبد على ذنب فمات عليه.

قال عبدالعزيز بن أبي رواد: حضرتُ رجلاً عند الموت يلقَّن لا إله إلا الله، فقيل له: قل لا إله إلا الله.

قال: هو يكفر بلا إله إلا الله!!

وإذا أشير له بالقرآن.

قال: هو يكفر بالقرآن!!

فمات فسألنا أهله.

قالوا: كان مُدْمِن خمر، مات منه.

وبعض الناس يصر على المعصية فتهدم مستقبله وعمره كله، والله المستعان.

يقول سفيان لبعض تلاميذه: لماذا تضحك؟ هل علمت علم الله فيك؟ هل تدري ما هي خاتمتك؟

والضحك عموماً وارد في محله، فالله يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ وضحك رسولنا ﷺ ولكنه الخوف من سوء الخاتمة.

في كتاب فتح الباري لابن حجر: أتى ملك الموت إبراهيم عليه السلام ليقبض روحه فجلس أمامه.

قال: ماذا تريد؟

قال: أقبض روحك.

قال: وهل خليل يقْبض روح خليله، يعني الله خليل إبراهيم وإبراهيم خليل الله.. وهل الخليل يقبض روح خليله؟

فقال الملك: وهل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله!

فسكت إبراهيم عليه السلام فقُبضت روحه.

وروى الغزالي وغيره وصاحب الحلية وصفة الصفوة أن معاذاً رضي الله عنه وأرضاه أتته سكرات الموت وهو في فلسطين في عسقلان أو هو قريب منها وكان عمره آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة.

هذا عمر معاذ بن جبل.. كل هذا التاريخ والعلم والزهد والجهاد في ثلاثين سنة. فليست المسألة بالأعمار، فإن بعض الناس يطول عمره ويسوء عمله، وبعضهم يطول عمره ويحسن عمله، **«وخيركم من طال عمره وحسن عمله»**[1].

قال معاذ لغلامه: انظر هل طلع الفجر؟

قال: لا.

---

(١) متفق عليه.

فمكث قليلاً وقال: انظر هل طلع الفجر؟

قال: نعم.

قال: مرحباً بالموت حبيباً جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. اللهم إنك تعلم أني لم أحب الحياة لغرس الأشجار ولا لجري الأنهار ولا لعمارة الدور ولا لرفع القصور، ولكن كنت أحب الحياة لثلاث: لمزاحمة العلماء بالركب في حِلَق الذكر، ولصيام الهواجر، ولتعفير الوجه لك في التراب.

هذه الثلاث التي جعلت معاذاً رضي الله عنه يمكث في الحياة ويحب الحياة.

وندم كثير من الناس في سكرات الموت ولو أنهم من الموحدين في الجملة، ولا نحكم على أحد من أهل القبلة بالجنة أو النار، فإن العلم عند الله عز وجل.

الوليد بن عبدالملك أتته السكرات وكان له أعمال الله أعلم بها، فهو الذي وسع المسجد النبوي، ووسع بيت المقدس، وبنى مسجد بني أمية في دمشق، ولكن ليس المقصد التوسع وليس المقصد عمارة المساجد، ولكن المقصد وجه الله وإرادته سبحانه وتعالى بالعمل والإخلاص له.

فلما حضرته سكرات الموت تلبَّط وقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ يقول: أين المال؟ أين السلطان؟

وأما سليمان بن عبدالملك أخوه الذي تولى الخلافة بعده لما حضرته الوفاة ندم لأن أبناءه صغار فلا يستطيعون الخلافة بعده!!

فأخذ ينشد في سكرات الموت ويقول:

إن بنيّ فِتية صغار   أفلح من كان له كبار

فقال عمر بن عبدالعزيز: لا، إنما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

قال الشيخ الحكمي:

لا تحتقرْ شيئاً من المآثم وإنما الأعمال بالخواتم

قال حاتم الأهتم أحد الصالحين: من خلا قلبه من ذكر أربعة فهو مغتر بالله العظيم.

الأول: الميثاق.. فإن يوم أخذ الله الميثاق أخذ قبضة من الناس فقال: هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي.

فتصوَّر في أي القبضتين أنت؟

الثاني: الظلمات الثلاث.. فإن الله يكتب على العبد رزقه، وأجله، وشقي هو أم سعيد وهو في بطن أمه.

والثالث: هول المطلع.. عندما نخرج من القبور.

والرابع: يوم يصدر الناس أشتاتاً.

هذه الأربعة أذهلت الصالحين وجعلتهم يتحرون لقاء الله عز وجل، ويبكون على أعمارهم، ويندمون على ما فرَّطوا.

وإذا رأيت العبد يسرف في الخطايا وهو يضحك فاعلم أن عاقبته وخيمة إن لم يتداركه الله برحمته.

فمن علامات العصاة أنهم يسيئون ويضحكون حتى تجد بعضهم يظلم ويفتك ويخون ويعتدي وتجده سعيداً ضاحكاً فارحاً بعمله ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

تجد بعضهم: ما يظن أنه أخطأ ولا يظن أنه أساء، بل هو في بحبوحة من العيش يضحك من العافية وقد قدَّم من الصفحات السود أمامه ما يندم عليها بعد حين عندما يقابل الديَّان.

إلى ديان يوم الحشر نمضي وعند الله تجتمع الخصوم
أما والله إن الظلم شؤم وما زال المسيء هو الظلوم

أحد الوزراء العباسيين، أتاه فقير فلطمه على وجهه لطمة ثم ندم فقال: خذ ما شئت.

قال: والله لا آخذ، ولكني أحاكمك إلى من يأخذ منك ما شئت وما لا شئت.. أو كما قال.

فالحكم لله إذا برز الله للناس ليحاكمهم قال: لمن الملك اليوم؟

فلا يجيبه ملَك مقرَّب ولا نبي مُرسل.

فيُجب نفسه بنفسه ويقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

• علامات حسن الخاتمة وسوئها:

ما هي علامات حسن الخاتمة؟ نسأل الله لنا ولكم حسن الخاتمة.

هي خمس علامات:

الأولى: الصدق مع الله.

الثانية: تجديد التوبة.

الثالثة: المسارعة إلى الصالحات.

الرابعة: اتباع السنة.

الخامسة: تذكر الآخرة والاستعداد لها.

وعلامات سوء الخاتمة خمس:

الأولى: النفاق والمراءاة والسمعة.

الثانية: الاغترار بالدنيا والانغماس فيها.

الثالثة: الأمن من مكر الله عز وجل.

الرابعة: الغفلة عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

الخامسة: التسويف بالتوبة.

● علامات حسن الخاتمة:

أما علامات حسن الخاتمة.

فأولها: الصدق مع الله عز وجل، دلّ على ذلك الكتاب والسنة، قال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

وقوله ﷺ في الصحيح: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء، ولو مات على فراشه**»[1]، إلى غير ذلك من الأدلة.

وبضدّها من كَذَبَ مع الله، لا يبلغه الله ما تمنّى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، ولا يهدي سبحانه وتعالى من خان عهده، ولا يهدي سبحانه وتعالى من لا يريد الهداية.

الصدق مع الله له ثلاثة أركان:

١ ـ عزم النية وعقدها: بحب وطاعة الله، وأن يكون قصده بالعمل وجه الله، وأن يحب الله ورسوله حبّاً من داخله، وأن يصدق مع الله ومع الرسول ﷺ.

٢ ـ أن يصدق جوارحه في طاعة الله.

٣ ـ أن يكون وقته معموراً بطاعة الله، فمن فعل ذلك فقد صدق مع الله.

---

(١) رواه مسلم.

وبعضهم جعل الصدق مع الله علامات يقول: أن لا تجعل بينك وبين الله الناس، فإن بعض الناس يجعل بينه وبين الله الناس، فيقول: رضى الناس أحب من رضى الله، وسخط الناس أهم عندهم من سخط الله.

ولذلك تجده يراعي شعور الناس ويراعي رضى الناس ويتلطف مع الناس.

يقول الأول لبشر مثله:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

وقد صحَّ عنه ﷺ عند ابن حبان وبعضهم يرفعه وبعضهم يجعله من كلام عائشة: «**من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أسخط الناس برضا الله رضي الله عليه وأرضى عليه الناس**».

وقال بعضهم: الصدق مع الله أن يستوي عندك المدح والقدح.

فإذا رضي الله فلا يهمك أحد.

وقال بعضهم: ألا تزيد أمام الناس ولا تنقص مع نفسك.

فإن بعض الناس يتشجَّع في الأعمال إذا رأى الناس، وإذا سافر معهم قام الليل وصلَّى بالضحوات وقرأ في القرآن، وإذا أصبح في بيته لم يفعل معشار ذلك.

الثانية: تجديد التوبة، فكل صباح يجدد التوبة، لأن الذنوب كثيرة لكن العبد يجدد التوبة دائماً ويكثر من الاستغفار والندم.

أما الفريق الآخر فتجد أحدهم لا يلتفت إلى التوبة وهو مُصِرٌّ على الذنوب والخطايا، وتجد بعضهم لا يحب أن تذكِّره بالتوبة والعمل

الصالح ويقول: دعنا نتمتع، اتركنا نأخذ راحتنا، لكن إذا فاجأه الموت أصبح مثل فرعون فقال: ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـنَ﴾ فما نفعه ذلك.

أعلى الله يكذب؟ أعلى الله يخادع؟

الثالثة: المسارعة إلى الصالحات، فتغنم عمرك، وتنظر هل قدمت صالحاً في الحياة؟ وما هو اليوم الذي صرفته في طاعة الله؟

وتكثر من نافلة الصلاة، وقراءة القرآن والذكر، وحضور مجالس العلم، وحب الصالحين، والمدافعة عن أولياء الله عز وجل، والانتقام إذا رأيت حدود الله وأوامره تنتهك، والغيرة من أجل مبادىء الله عز وجل.

الرابعة: اتباع السنّة، سنّة محمد ﷺ، ومن لم يتّبع محمداً ﷺ في كثير من السنن ففي قلبه شك، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

فبعضهم يترك السنن وهو يدَّعي حب الله وحب رسوله ﷺ، إذاً لماذا تركتها؟ أليس في حبك قدح؟ سل نفسك فأنت بصير عليها ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

وبعضهم يجعل ذكر الرسول ثانوياً فهو فردٌ من الناس، ولا يفرح بذكره بل تجد سَقَطَة الخواجات عندهم من أشرف وأعظم الناس!

ولو أحبوه ﷺ لظهر حبهم له في أعمالهم.

من الذي جعل الإمام أحمد في مرض الموت يجلس فيخلِّل لحيته بأصابعه؟

إنه حب السنة.

قيل لأحد التابعين: من هم أهل السنة؟

قال: من ليس لهم اسم إلا أهل السنة.

ولذلك كان الإمام أحمد من تقديره للسنة وحبه لها لا يقوم لأبناء الخلفاء في مجلسه ولا يأبه بهم، ولكنه يثب عندما يرى واحداً من أهل السنة.

دخل عليه مرة من المرَّات إبراهيم بن سعد أحد أحفاد عبدالرحمٰن بن عوف فوثب من مجلسه حتى عانقه، فلما سُئل قال: ألا أقوم لابن أحد المبشرين بالجنة؟

ودخل عليه رجل كبير وهو في مجلس الحديث وكان هذا الشيخ قد صبغ لحيته وغيَّرها بالحِنَّاء فقام الإمام وعانقه وقال: ما قمت إلا حباً للسنة.

وليست العبرة بأن يعمل بالسنة النبوية وهو مفرِّط بالفرائض.

فهذا جهل.

تجد بعض الناس أموالهم في البنوك الربوية ويأتيك يقول: هل يقص الشارب أو يحلقه!!

سبحان الله!

تسأل عن الشارب يحلق أم يقص، وأموالك تشرب من ماء الربا في البنوك.

وقس على ذلك.

فنسأل الله أن يثبتنا على سنته.

الخامسة: تذكر الآخرة والاستعداد لها، فدائماً الصالح يذكر الآخرة.

وكثير من الصالحين يقول: لو فات ذكر الموت من قلبي ساعة فسد قلبي.

وكان بعضهم أخذ له كفناً ووضعه أمامه ينظر إليه دائماً.

وميمون بن مهران حفر له قبراً في (الحوش)، فكان إذا أراد أن ينام نزل وقرأ شيئاً من القرآن ثم خرج وقال: هاه يا ميمون قد خرجت فاعمل صالحاً.

ونحن نقول: لا تحفروا قبوراً في بيوتكم، ولكن نطالب أنفسنا وإياكم بالمحافظة على الصلوات الخمس، وتقوى الله، ومواصلة الخير، والاهتمام بشرعه سبحانه وتعالى، وتذكر الآخرة، وذكر الله سبحانه.

أما أهل الغفلة فإنهم يعمهون ولا يتذكرون إلا وقت السكرات.

إذا قرأ القارىء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لم يرفعوا رأساً لما يقول وإنما يهزون رؤوسهم إعجاباً بصوته! وليس المقصود من القرآن الصوت فقط وإنما العمل والامتثال.

ولذلك كان الصحابة لا يجاوزون بضع آيات منه حتى يعملوا بها.

• علامات سوء الخاتمة:

الأولى: النفاق والرياء والعياذ بالله، وأنتم تعلمون أن المنافق مخذول في الدنيا والآخرة وهو في الدرك الأسفل من النار.

وهناك نفاقان: النفاق الاعتقادي والعملي.

فالاعتقادي صاحبه مخلَّد في النار لا يخرج منها.

والعملي ذنوب وخطايا من الكبائر يحاسَب عليها.

«ومن راءَى راءَى الله به، ومن سمّع سمّع الله به»[1]. يعني من

---

(١) متفق عليه.

أحبَّ الرياء والسمعة والرضى والشهرة والظهور فضحه الله وأظهر مخبوء نفسه، ونعوذ بالله من ذلك، ونسأل الله العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة.

الثانية: الاغترار بالدنيا والانغماس فيها.

لقد أصبحت علاقة الناس اليوم للدنيا، وحبهم للدنيا، وبُغضهم للدنيا، وزيارتهم للدنيا، إلا من رحم ربك.

ومن يوم يصبح العبد إلى أن يمسي وهو يتحدَّث عن الخبز وعن الثلاجة وعن السيارة وعن البراد وعن الأولاد وعن الوظيفة وعن المزرعة وعن البستان وعن العمار.

لكن لو سألنا وقلنا: ماذا قدَّمت للإسلام في هذا اليوم؟

لما وجد جواباً.

أين أنت يا هذا والإسلام يُصاب في كل مكان؟

أين أنت عن الدعوة وعن البذل وعن النصرة؟

ذهب أحد الهنود من رجال جماعة الدعوة والتبليغ إلى أمريكا ليتكلَّم في الشباب العربي المسلم وهو لا يجيد العربية جيداً.

فقال: أنا جئت من الهند لما سمعت أن حديقة محمد ﷺ تحترق.

(أنا جئت في مياه أنا يطفىء) يعني: جئت لأطفىء حديقتكم التي احترقت والتي أحرقتموها أنتم العرب.

فنسأل أنفسنا: هل جُرحنا في سبيل الله؟

هل بكينا من خشية الله؟

هل دفعنا أموالنا في سبيل الله؟ أم أننا ألهتنا هذه الدنيا الدنيَّة عن

أمور الآخرة واهتماماتها؟ أسأل الله لي ولكم اليقظة من هذه الغفلة والاستعداد للآخرة بأمور الخير واستغلال منافذه.

فمنافذ الخير كثيرة: منها أن تتصدَّق بمالك فتدعم الدعوة والعلم، ومنها أن تهدي الشريط الإسلامي، ومنها نفع المسلمين ومنها ومنها.

الثالثة: الأمن من مكر الله عز وجل حتى كأن بعضهم آتاهم الله ميثاقاً أن لا يعذبهم.

وبعضهم إذا نصحته قال: رحمة الله واسعة، والله ما علمنا في أنفسنا إلا خيراً!

ويأتون بأحاديث موضوعة تشهد لحالهم.. يقولون أن الرسول ﷺ ضمن الله له أن يدخل أمته كلها الجنة فأنا منهم.

ومن قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فاشهدي يا جبال، ويا حجر، ويا مدر، ويا شجر، أنه لا إله إلا الله!

ولم يعلم هذا أن مثل هذه الأحاديث مضبوطة بضوابط ولها شروط لا بد أن يأتي بها، وإلا فإن الكلام وحده لا يكفي.

الرابعة: الغفلة عن ذكر الله عز وجل، فأثقل ما يمر بالغافلين ذكره سبحانه وتعالى، فلا يكون له حسبان عندهم بل هو في آخر القائمة.

وإذا أتى أحدهم يقرأ القرآن أخذ القرآن يوم الجمعة بيده اليسرى وتصفَّحه تصفحاً ثم هجره إلى الجمعة الأخرى.

الخامسة: التسويف بالتوبة وتأخيرها، وتأجيلها وعدم الإسراع بها، وتصغير الذنوب في العين، والإسراف في الرجاء إلى أن يصبح عقيدة للعبد ويصبح منهجاً في الحياة.

فدائماً يثني على نفسه بما لا تستحق، وإذا طولب بالتوبة قال: سوف أتوب.

وهذا علامة الخذلان والعياذ بالله والحرمان.

ولذلك قال بعض الفضلاء: من زرع كلمة (سوف) أنبتت له نبت (ليت)، فأثمرت له (لعلَّ)، وثمرها (الخيبة والندامة).

والله قال في أعدائه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ يلهيهم الأمل: أي يطول بهم الأجل ويؤخِّرون التوبة ويسوِّفون بها حتى يقصمهم الله.

وبادر بالتوبة النصوح قبل اضطراب وانتزاع الروح
لا تحتقر شيئاً من المآثم وإنما الأعمال بالخواتم

وبعضهم لا يتوب حتى يحضر أجله، فيندم كما روي عن بعض الخلفاء أنه لما حضرت الوفاة بكى وقال: ما كنت أعلم أني أموت شاباً، ولو كنت أظن أني أموت شاباً لتُبت إلى الله.

وهل له عهد أن لا يموت إلا شيخاً؟

فأسأل الله الذي بيده مقادير الأمور، ومفاتيح القلوب، أن يتوب علينا وعليكم، وأن يُلهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا، وأن يسدِّدنا وإياكم، وأن يتغمَّدنا وإياكم برحمته.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❋ ❋ ❋

مجالس المؤمنين
المجلس الأول: واصبر نفسك

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

غذاء القلوب ذكر علاّم الغيوب، وقد نادى منادي حي على الفلاح فأجابته الأرواح الصِّحاح.

جلس أهل الشهوات يدنِّسون ألسنتهم بانتهاك الأعراض والوثوب على الحُرمات واقتحام أستار المؤمنين، شادوا دورهم وخرّبوا قبورهم، زخرفوا برودهم، وهدّموا لحودهم.

عندها هبّ أهل الإيمان على بريد التوفيق مجيبين بلال العزم في سحر الأيّام، فأما قلوبهم فمطمئنة بذكر ربهم، وأما ألسنتهم ففي زجل بمدح ربهم، وأما عيونهم فجارية بماء الحبّ، باعوا دماءَهم من الله فهم ينتظرون الذبح في سبيله، وأرخصوا أنفسهم في خدمته، فكل تعب في مرضاته راحة، وكل سهر في عبادته أنس، وكل جوع لأجله غنيمة.

إذا رأيت خدّام الدنيا يلوِّحون بالدنانير الملس، ويتهافتون كالذئاب العلس، فاصبر نفسك.

وإذا دعاك الناكثون في السهرات، الغافلون في الخلوات، المتثاقلون عن الطّاعة، المتفلّتون عن صلاة الجماعة، فاصبر نفسك.

إذا سمعت نغمة الوتر، وصولة أهل البطر، وجموح المترفين، واستفزاز المرجفين فاصبر نفسك.

عندنا خير مما عندهم، حياتنا جدٌّ وحياتهم هزل، ولايتهم في اضطراب وولايتنا لا تقبلِ العزل، كلما كدنا نرضخ صاح النذير واصبر نفسك.

أيها المؤمنون، هل شممتم مسكاً أزكى من أنفاس التائبين؟ هل سمعتم بماء أعذب من دموع النادمين؟ هل رأيتم لباساً أجمل من لباس المحرومين؟ هل رأيتهم زحفا اقدس من زحف الطائفين؟

يا ساري البرق خذ بالله من خلدي   دمع المحبة مجتازاً إلى أضمِ
فالعين ساكبة والطرف مكتمل   من السّهاد وذو الأشواق لم ينمِ

يا مسلماً هل من ركعتين ودمعتين؟ فالحياة بلا ركوع دمار، والعمر بلا دموع خسار.

خلا رسولنا ﷺ في الغار فهبطت عليه الأنوار، فأتت من الغيب بشرى النبوة تتنفس في السَحَر كالشذى، وشقّت صمت العالم وأنسام التوفيق تحملها السكينة من دار إلى دار، فاستقامت مكّة على هَدْهَدة أنامل الرسالة، فإذا بشمس الوحي يتهادى من خلف تلال التاريخ، وفي عينيها أسرار عشاق المبادىء وسُمَّار المجد، وفي كف اليتيم شعل من طور سيناء، وفي دمه عقيدة حارة تتحدَّى الطواغيت والجبابرة، وفي ملامحه وعد يقرؤه أتباعه من القراء والآيبين.

شبَّ اليتيم ونجم سعوده يهوي في بادية بني سعد، والملحمة تنادي ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾، فأشرقت

شمسه فكل أرض لم تسعد بها فهي شقية، وكل عين لم تشاهدها فهي عمياء. ذلك بأن الله يهدي برسوله من يشاء ويضل من يشاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾.

* * *

المجلس الثاني:
وأتممت عليكم نعمتي

نزلت هذه الكلمة في عرفة، وظن بعضهم أن النعمة في الأسكنة والدور والدراهم والقصور والموائد الشهيَّة والمراكب العرطيّة، فأين هذه النعمة؟

فهل هو المقصود ﷺ بقوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ وبطنه يربَط بالحجر من وهج الجوع، والحصير يؤثر في جنبه، وبيته في قامة الإنسان بُني من لبن الطين، فأين النعمة؟

ألا إنها تلك المبادىء الخالدة التي جاء بها هو وعاشها في روحه وضميره ودمه.

ألا إنها أخلاقه العامرة الزكية، التي سرت في قلوب أتباعه إلى يوم الدِّين.

ألا إن النعمة ذلك النور الذي حمله إلى المتخبِّطين في الظلام يخرجهم من الظلمات إلى النور، والوحي الذي تشرَّف بتبليغه للعالم.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾.

لقد بُعث ﷺ بهذه الرسالة الربانية التي لم يطرق العالم رسالة مثلها، ولم يصدع الكون صوتاً أنبل منه.

بُعث ﷺ والجزيرة العربية شحيحة الموارد شاحبة الكنوز مثقلة الخطا بالتَّبِعات متعثِّرة في دروب التاريخ.

بُعث ﷺ والجزيرة تحتاج إلى دور للرعاية، وملاجىء للعناية، ومستشفيات لمحاربة أمراض الإنسان، وقلاع عسكرية لحماية الأمّة.

بُعث ﷺ في أمة تأكل الميتة، وتقدِّس الحجر، وتؤمن بالكِهَانة، فكانت مهمَّته أعظم من عمارة دار أو بناء مدرسة أو تعمير مستشفى أو إقامة قلعة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

فصاغ العقول بمعدن الفطرة السليمة، وغذّى الأرواح بقوت الوحي، وأيقظ الأنفس من سُبات الغافلين، وأخبر العالم أن هناك عالماً ثانٍ وحياة أخرى وميعاداً يقوم فيه الناس لرب العالمين، فيا لخسارة الغافل كم يُقتل بسكين الهوى وما علم المسكين، وكم يُشنق في حبال الدنيا وهو مستكين، يضحك والموت ينادي: ويحك!، ويلعب والفناء أطمع في بقائه من أَشْعَب:

ليتنا يوم وصلنا المنحنى ومررنا بالفضى زرنا ثمد

فعسى الله أن يُركبنا سفينة محمد ﷺ. فقد نادانا حادي السير: اركب معنا ولا تكن من الغافلين، وأذّن فينا بلال الأنذار: لا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

فالبدار البدار، قبل موت الأهل وخراب الدار:

هذا وأيامك الأولى غدت أسفاً وعمرك الفذ أضحى في الهوى ندماً

❁ ❁ ❁

المجلس الثالث:
ذبح لمرضات اللّه عز وجل

العظماء يُذبحون في سبيل العظيم سبحانه لأنهم بايعوا منه أنفسهم نقداً وقبضوا ثمن الأرواح في مجلس العقد على معاهدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾.

والمفلِسون تخرج أنفسهم غصباً لأن الثمن نسيئة وعقد البيع بلا شهود مكتوب فيه ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

أما عمر بن الخطاب، أما أبو حفص، شيخ الشيوخ وقرة عيون الشباب فأتاه الموت في صلاة الفجر ليغظُم الأجر وليبدأ يومه في الجنة مع نسيم الصباح وليتهيأ للنزول بعد الرواح. أتته منيته على رأس الخنجر فضجت دماؤه بلا إله إلا الله تتفجّر، سال دمه في محراب المسجد، يفوح الدم كالمسك ويقطر كما العسجد:

لله درّك كـلُّ قـطـرة مـسـلـم ... حيّت دماءك ليلة المحراب
لم تبقَ عينٌ بعد عينك في الضحى ... إلا استهلت ثمّ بالأسباب

حجَّ الفاروق فدعا في الأبطح: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك وميتة في بلد رسولك. فأجاب الله دعوته وذبح في مرضاته مهجته.

فما أحسن المصرع بين المنبر والروضة.. كان يقرأ في الصلاة فسكت الصوت وحضر الموت، ومُزّق أديمه وبكى حريمه، وكفنت سعادة الإسلام في أكفانه، وحنطت عدالة الملّة في أردانه.

يا صاحب الدِّرة التي أطرت بها النوم من عين الخونة الناكثين.

يا صاحب الثوب المرقّع الذي حقرت به الدنيا في عيون الناسكين.

يا صاحب الصوت الجهوريّ الذي أخفتَ به المارقين.

تالله لقد صرت إكليلاً على هامة العدالة، وشهيداً ترويه مجالس السّمار لرواد الشجاعة والبسالة.

من لعين شفها طول النوى ولقلب شفّه طول السهد
جسد لفّفَ في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

❋ ❋ ❋

المجلس الرابع:
لا تحزن إن اللّه معنا

هذه العبارة صاغها رسولنا ﷺ في لحظة من لحظات معاناته، وتنفّس بها في زمن أحاطت به الدنيا وهو في الغار يستتر من أعدائه فيلاحقونه من كل جانب ويرصدون عليه الطرق ويُغلقون عليه المنافذ ويُوصدون في وجهه الأبواب. لكنهم ما استطاعوا أن يُغلقوا باباً واحداً أو يرصدوا طريقاً واحداً ويقطعون حبلاً واحداً.

هناك باب الله المفتوح لمن أراد القرب ممن ناداه.

وهناك حبل الله الممدود لأوليائه المتصل بأحبابه.

هتف ﷺ للصدّيق وهما في الغار: «**لا تحزن إن الله معنا**» ـ معنا يرانا ويرعانا، معنا يحوطنا ويحفظنا، معنا يدافع عنا ويقبل منا، معنا بحفظه ورعايته، معنا بحمايته وكفايته، معنا فلا نخاف ولا نُهزم، معنا فلا نخزى ولا نندم، معنا ولو كانت الدنيا معهم.

أنت القوي فقد حملت عقيدة   أما سواك فحاملو أوزار
يتفاخرون بهذه الدنيا وقد   طُبعت على الإيراد والإصدار
دنيا وباعوا دينهم في حبّها   يا ذلة المشرى وقبح الشاري

سبحان من حمى رسوله من الحساد والأضداد والأوغاد.

سبحان من جعل العاقبة له، وجعل الدائرة على أعدائه.

سبحان من شرح صدره، ورفع ذكره، وأعلى قدره، وعظّم أجره.

سبحان من أراه ألوية الكفر تتمزّق، وقلاع الباطل تتحرّق، وكتائب الإيمان تتدفّق.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾.

* * *

المجلس الخامس:
إني أوعك كما يوعك رجلان منكم

هذه كلمة المعصوم ﷺ يبوح بها والحمّى ملء جسده تصارعه على فراشه كما صارعته الأحداث والمصائب من كل جانب.

أبنتَ الدّهر عندي كل بنتٍ فكيف نجوت أنت من الزحام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

هذا الجسم البريء، هذا الكيان الظاهر، هذا الجناب الشريف يرتعد من الحمّى ويرتجف من الألم ليحصل على أعظم منزلة حصل عليها محموم وأرفع درجة تبوأها مريض.

البلاء على قدر المحبة، والأجر على مقدار الصبر، وأعظم حبيب للمولى جلَّت قدرته هو رسولنا ﷺ، والله إذا أحب عبداً ابتلاه ليرى صبره وشكره وتسليمه وإذعانه، فكان رسولنا ﷺ إمام الصابرين لا يسبقه في مضمار الصبر أحد، وكان قدوة الشاكرين لا يتقدم عليه في باب الشكر مخلوق. فجمع الله له المنزلتين والدرجتين: الصبر في منتهاه والشكر من أعلاه.

«لا يصيب المؤمن من همٍّ ولا وَصَب ولا نَصَب ولا مرض حتى الشوكة إلا كفّر الله بها من خطاياه».

إذاً هناك رب يُكَفِّر، وإيمان يعصم، وحسنات تُعْطى، وأجر ينتظر، فهنيئاً لمن اتبع هذا الرسول ﷺ.

❃ ❃ ❃

المجلس السادس:
تغبير القدم ساعة

لما تهيأ أسامة بن زيد خارجاً بجيشه في سبيل الله بعد وفاة الرسول ﷺ ودّعه الخليفة الأول والصديق الكريم أبو بكر رضي الله عنه.

أسامة راكب وأبو بكر ماشي، فهمّ أسامة بالنزول ليركب الخليفة فقال الصدّيق: لا تنزل ووالله لا أركب، وما عليّ أن أغبّر قدمي ساعة في سبيل الله.

وأنا أقف وإيّاك أمام هذه الكلمة متسائلين:

يا ترى هل هذه أول ساعة يغبّر فيها الصدّيق قدمه؟

أما سبق له أن غبّرها كثيراً؟

أما غبّرت قدمه في مكة يوم قلّ الناصر، وتوتر القريب، وتنكّر المعرفة، وكثر الشامت؟

أما غبّر قدمه يوم بدر والموت يزحف، والكفر يغلي، وأرواح المؤمنين تتطاير إلى جنة عرضها السموات والأرض؟

أما غبَّر قدمه في أُحد يوم تدانت الصفوف، وتكسّرت على رؤوس الأبطال السيوف، واشتد الخطب وبان الهول؟

أما غبَّر قدمه وهو يذرع صحراء الجزيرة إلى تبوك، والجوع ملء أحشائه، والظمأ يعصر كبده، والحرّ يصل إلى كل ذرة في جسمه، والغبار يداعب خياشيمه؟

أما غبَّر قدمه في الغدوات والروحات والظلمات إلى الجمَع والجماعات؟

هذا هو ما فعله أبو بكر الصديق فماذا فعلنا نحن!

متى نغبر أقدامنا، متى جاهدنا، أين غزواتنا، أين تضحياتنا؟

دع المدح للصديق يُشرق في الدجى ... ودع كل ذكر في معاليه يكتب

❋ ❋ ❋

المجلس السابع: فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون

إذا فرح الناس بالمال والجاه، فافرح بلا إله إلا الله.

إذا سعدوا بالدرهم والدينار، فاسعد بحب الواحد القهّار.

إذا أَنِسوا بالأهل والخلاّن، فانس بذكر الملك الديّان.

مساكين هذا الحي ما ذر شارق   من البين إلاّ أمطروا بالمحاجر

يقول رسولنا ﷺ: «**لئن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر، خير مما طلعت عليه الشمس**».

فكيف يفرح الملأ من بعد هذا الخطاب بأهل أو أحباب أو مال أو أصحاب.

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾.

من غرّته نضارة جسمه ووسامة رسمه فليذكر الدود إذا تحدّر في الخدود، والتراب إذا أهيل على الأهداب.

ومن خدمته منزلته وأعجبه سلطانُه، فليتذكر يوم تهدم في القبر أركانه، وتسقط في اللّحد أسنانُه، ويتقطع في الطين لسانه:

وسلاطينهُم سل الطين عنهم والرؤوس العظام صارت عظاماً

عجباً للموت ذهب بعقول الألباء ومزق ألسنة الخطباء وكسّر أقلامَ الأدباء.

كل شيء يذوب في التراب إلا العمل الصالح، وكل شيء يذهب إلا الذكر الجميل.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

❋ ❋ ❋

المجلس الثامن:
يا ضعيف العزم

لا تعيش المبادىء إلا مع التضحيات.

هل علمت أن رسولنا ﷺ وُضع السَّلى على رأسه، وأُدميت عقباه، وكسرت ثنيَّته، وشُج رأسه، وقُتل أحبابه، وربط الحجر من الجوع على بطنه، وغُلب في بعض المواقف، ونيل من جنابه الطاهر، وحبس في شعب أبي طالب، وسمع السبَّ بأذنيه، ورأى المكائد بعينيه، وطرد من دياره ورُمي بالجنون والسحر والكهانة!

أما علمت أن أحمد بن حنبل رمي في الحبس وضُرب ضرباً مبرّحاً ومُنع من التدريس وخوِّف بالقتل!

وهذا ابن تيمية يُرمى في السجن، ويُهدر دمُه، ويُسبُّ عرضه، ويُتَّهم دينه!

وعمر نُحر في المحراب ومُزّق جسمه بالحراب.

وعثمان سالت مهجته بسيف الثوار على المصحف وهو في الثمانين.

وعليٌّ ضُرب جبينه بسيف الخوارج حتى سال دم رأسه من رأس لحيته.

كيف تنبت أشجار المبادىء والأفكار بلا مواقف؟

كيف تعشق القلوب جباناً يعيش لبطنه؟

كيف تحب الأمة حقيراً ليس له في التضحية تاريخ، وفي البطولة قدم، ولا في الإقدام منبر؟

* * *

المجلس التاسع:
ورفعنا لك ذكرك

أين من حارب الرسل عليهم الصلاة والسلام، أين ذكرهم؟ ما هي عاقبتهم؟ أين من نصب العداء للمعصوم؟ لقد ذهبت ريحهم، وسفلت كلمتهم وقُطِع دابرهم.

وأما هو فعاشت مبادؤه، وانتشرت رسالته، وانتصرت كتائبه، نسخ تاريخهم من القلوب، وكتب تاريخه يُمجد علاّم الغيوب. اسمه يدوي فوق المنابر، وتعاليمه تجلجل على المنابر، وأعداؤه يُلعنون في كل موسم ويُشتَمون في كل مجمع.

أين من سجن أحمد بن حنبل وجلده؟ هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً، أحمد بن حنبل معنا دائماً بذكره وعلمه وسيرته، وأما هم فلا نعرفهم ولا نذكرهم ولا نحبهم.

أين خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية؟ مات تاريخهم معهم وفتاويهم وأقوالهم، هم نكرات في العالم، وهوامش في الدواوين، منسيُّون في ذاكرة الزمن وهو ملء السمع والبصر، ذكره يشنّف الآذان وصوته يجلجل في الأزمان وعلمه يوزّع في الشيوخ والشبّان: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

سرى ذكرهم كالمسك ينشر في الورى　　　وذكر سواهم زكمة في الخياشم

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

المجلس العاشر:
أليس اللّه بكاف عبده

ارضَ بكفاية الله يكفيك عن كل كافية، فإنه غالب على أمره ولا يغلبه أحد، وتوكل عليه فإنه حي لا يموت وسواه ميّت.

أما كفى إبراهيم الخليل وقد أُلقِيَ في النار فصيَّرها له برداً وسلاماً.

أما أنجى نوحاً من الطوفان يوم صارت الأرض كوكباً في بحر من الماء.

أما شقَّ البحر لموسى ودمَّر عدوّه وفجَّر له الصخر بالماء العذب.

أما حمى رسولنا ﷺ في كل معترك، أما أنقذه من الويلات.

أما نجّاه من الاغتيالات، أما نصره في الغزوات، أما آنس قلبه من الوحشة، وثبَّت فؤاده في الهول، وشدّ أزره في النازلات.

من الذي دعاه فما لبّاه؟ ومن هو الذي انطرح على عتباته فما أجاب دعواته؟ ومن الذي سأله فما أعطاه، ومن ذا الذي لجأ إليه فما كفاه، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يُغني ويفقر، ويحيي ويميت، ويولي ويعزل، ويملك ويخلع، ويُمْرِض ويشافي، ويبتلي ويعافي.

النواصي بيده والمقاليد في قبضته، والخلائق في تصرفه.

إلـجـأ إلـيـه إذا دهـتـك مـهـمـة واقـصـد جـنـاب الـواحـد الـقـهّـار
واعــلــم بــأن الله جــل جــلالــه هــو كــاتــب الأرزاق والأقــدار

بالله عليك يا مسلم أن تقرع بابه وأن تقصد جنابه، وأن تتدبَّر كتابه، وأن تصاحب أحبابه. عندها سوف تجد اليسر والفلاح وتغنم الأجر والنجاح:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

❋ ❋ ❋

المجلس الحادي عشر: ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون

الأعلون عقيدة، فهي بيضاء راسخة رسوخ الجبال، صادقة صدق الفجر، كاملة كمال حاملها ﷺ.

الأعلون عبوديّة، فالرب والإله والناصر والكافي والرازق هو الله رب العالمين.

والأعلون مثلاً، فهي صفوة التعاليم وخلاصة قيم الأمم وغرّة ما وصلت إليها الكتب المقدسة.

والأعلون كتاباً، فهو وحي يوحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يُمَل على كثرة الترداد، ولا تفنى عجائبه ولا تنقضي عبره.

والأعلون رسالة، فهي ربانية عالمية شاملة كاملة، فهي سر إنقاذ العالم ومكنون فلاح الإنسان، ومصدر نجاة البشر في دنياه وأخراه.

والأعلون قائداً، فهو معصوم مؤيد بالوحي ظاهر بالحجّة قبلكم، حاكم بالعدل حامل للحق، ناشر للفضيلة قدوة للأنام.

والأعلون تاريخاً، ففي القائمة الصدّيق، والفاروق، وذو النورين، وأبو السبطين، وسيف الله، وحواري رسول الله، وأمين الأمة، وهلمّ جراً.

والأعلون تضحية، فسلوا بدراً وأحداً والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت، سلوا جماجم الشرفاء في الدنيا لماذا قطعت؟ وسلوا دماء الأبطال في أودية المعمورة لما سُفكت؟ وسلوا المهج الطاهرة لأي مبدأ قُتلت؟

والأعلون تراثاً، فليس عندكم حكايات ألف ليلة وليلة ولا أكاذيب حمورابي وهوَس أفلاطون ولا أحلام شكسبير، لكنْ عندكم كتاباً يُتلى، وسنّة تتبع، وآيات وعظات، وسلطاناً وبرهاناً، ونوراً وهداية وشفاء لما في الصدور.

❁ ❁ ❁

المجلس الثاني عشر: إن اللّه اشترى

عقد مكتوب، وميثاق موقع، وسلعة تعرض، ومُهج تُباع.

المشتري هو الله جل جلاله، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ ومَن أوفى من الله؟ والباعة المؤمنون روّاد بدر وأحد، وتلك المواقف المأثورة والمشاهد المذكورة.

والسلعة جنّة عرضها السموات والأرض، مَن دخلها لا يهرم ولا يندم لا يبلى شبابه ولا تذبل ثيابه.

والثمن مهج المصلين طارت من الصدور على رؤوس السيوف، وتناثرت من الأحشاء على صدور الرماح، فهل سمعت بيعاً كهذا البيع أوفى وأغلى وأجمل وأكمل وأشرق وألطف.

أمضاه أحمد عن أبطال أمته ... والله أنزله عهداً وميثاقاً

الأموال والأنفس والأعراض والجماجم والدماء كلها لمن خلقها، وإنما هي عندنا عارية وصاحب العارية أحق بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

ليس لنا شيء ولا معنا وعندنا شيء، فالعطاء والهبة والمنح والأيادي من الله عز وجل. خلق ورزق وعافى وستر ولطف وتكفَّل.

من بخل بمهجته في سبيل الله خرجت منه غصباً وسالت رخيصة وذهبت ذليلة:

نفوس تذوق الموت قتلاً ولا ترى ... سوى القتل للمجد المبجَّل مكسباً

❁ ❁ ❁

المجلس الثالث عشر: إن هؤلاء يحبون العاجلة

عبيد الدرهم والدنانير أذيال الدنيا، الحقراء التافهون، لا همَّ لهم ولا مقاصد، مطالبهم في الحياة كساء وغذاء ولذّة.

بخلاء جبناء، ألسنتهم والغة في أعراض الأوفياء، وأيديهم مقبوضة عن العطاء، وقلوبهم قاسية مليئة بالبغضاء، يحبون العاجلة فيعملون لها ويتحابّون من أجلها ويرتاحون لذكرها، ويحبّون العاجلة فيخدمونها، فهو قيام في ليالي الهوى على أقدام الطمع، ووقوف على أبواب الشح يستجدون بأكفِّ الفقر، فهم فقراء ولو جَمَعوا، جوعى ولو شبعوا.

ومن ينفق السَّاعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي صنع الفقر

يحبون العاجلة، وهي عاجلة في سعادتها فلا تدوم، عاجلة في راحتها فلا تبقى، عاجلة في عمرها فلا تستمر.

ذنبهم أنهم يحبّون العاجلة، وسيئتهم أنهم يعشقون العاجلة.

نسوا ذكر الله، وهجروا بيوته، وصدّوا عن سبيله، لأنهم يحبُّون العاجلة.

حاربوا أولياء الله وتعدّوا حدوده وانتهكوا حرماته لأنهم يحبّون العاجلة.

يستعجلون شهواتهم ويبحثون عن رغباتهم وهم سكارى في غفلاتهم، ويكفي أنهم يحبون العاجلة.

والله أعلم. وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

* * *

المحتويات

الموضوع	الصفحة

❁ ❁ ❁